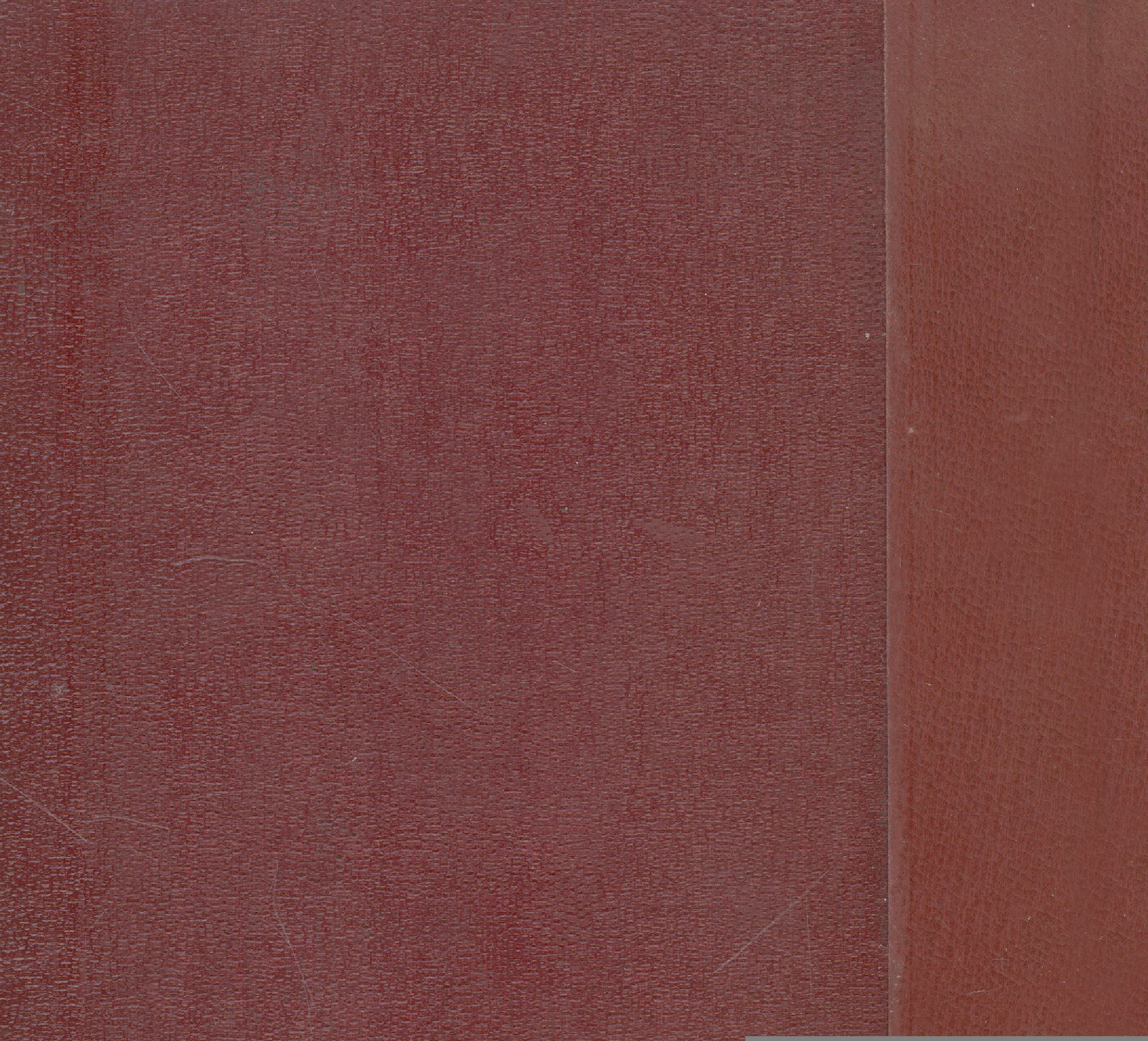

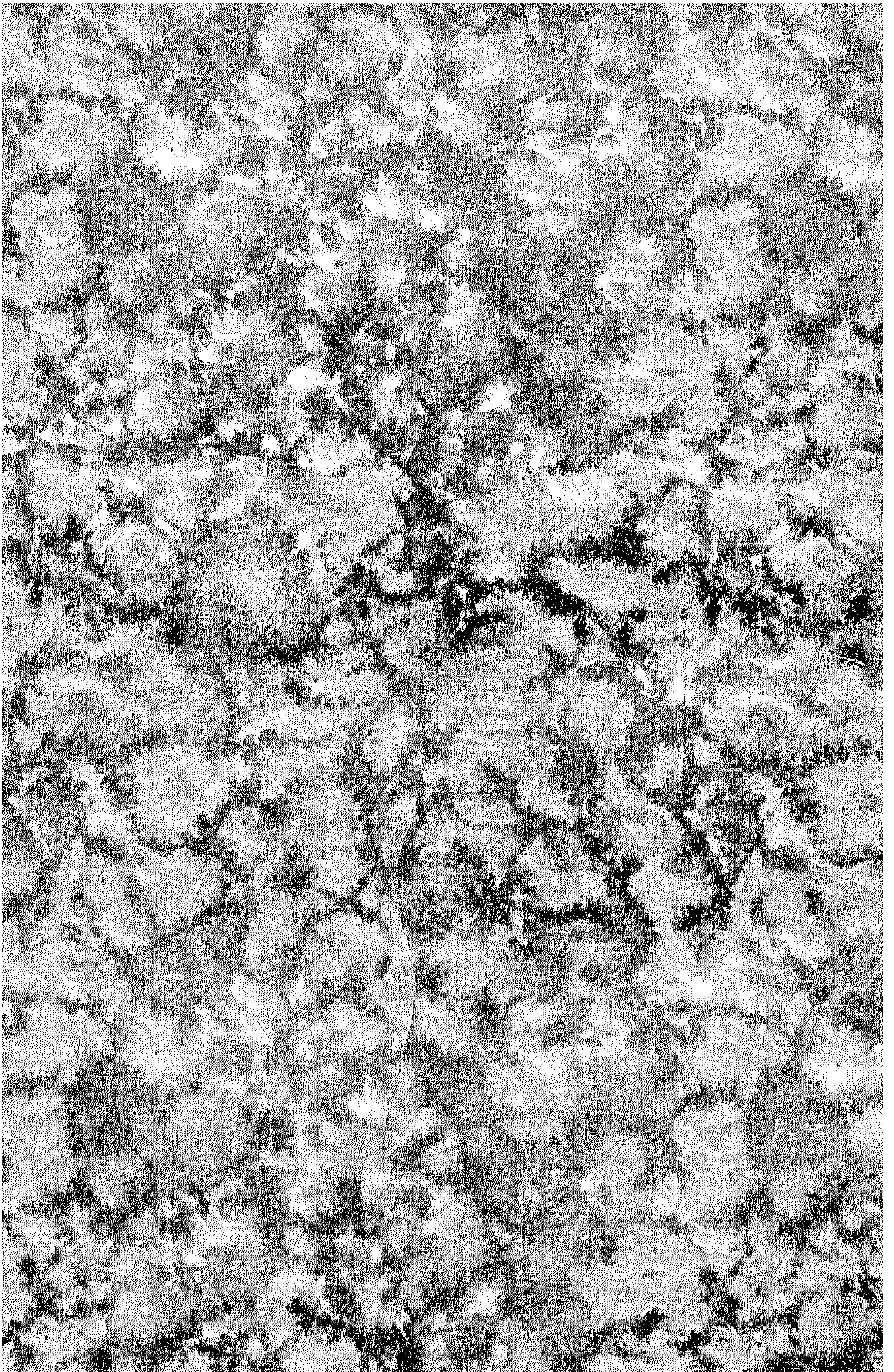


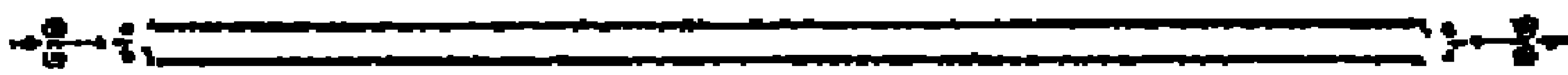




قبض الريح

تأليف

ابرهيم عبد القادر المازني



عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصرى رقم ٦

ص		
١٠	مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)	تأليف خليل بيدس
١٠	الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون)	ترجمة صادق رستم
٨	مقدمة الحضارات الاولى	« « « « «
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات (مصوّر)	تأليف الدكتور فخري
٢٥	« « « «	« مجلد بقماش « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها	« «
١٠	رسائل غرام جديدة (مزين بصور)	تأليف سليم عبد الاحد
١٠	الغربال ، بقلم مخائيل نعيمه	عضو الرابطة القلمية بامريكا
٢٥	علم الاجتماع (الجزء الاول في حياة الهيئة الاجتماعية)	تأليف
٢٥	« « (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية)	نقولا حداد
١٠	حصاد الهشيم (مصور)	تأليف الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني
١٠	مختارات سلامه موسى	تأليف (الكاتب الاجتماعي الشهير)
١٠	نظرية التطور واصل الانسان	الاستاذ سلامه موسى
١٠	اليوم والغد	« « «
١٥	أسرار الحياة الزوجية	ترجمة نقولا حداد
١٥	الحب والزواج	تأليف « «
١٠	مكايد الحب	ترجمة اسعد خليل داغر
١٥	في أوقات الفراغ	تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك
٥	خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال)	ترجمة حسين الجمل
٣	كتاب الحقوق الوطنية	تأليف فرنسيس مخائيل

ص

٢٠ روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر

١٠ الآراء والمعتقدات تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر

٨ رواية الانتقام العذب ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر

١٠ فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)

١٥ اهوال الاستبداد تأليف خليل بيدس

٢٠ رواية بارديليان (٣ اجزاء كبيرة) ترجمة المرحوم طانيوس عبده

٢٠ « الاميرة فوستا (جزآن كبيران) « » » »

١٦ « كابيتان (جزآن كبيران) « » » »

١٠ « فارس الملك « » » »

١٦ « الساحر العظيم « » » »

٥ « روكامبول (عن الجزء الواحد) « » » »

١٥ « فلمبرج (جزآن كبيران) « » » »

٥ « مروضة الاسود « » » »

١٦ « عشاق فينيسيا (جزآن) (رهن الطبع) « » » »

١٠ « المتنكرة الحسناء « » » »

٦ « النفس الحائرة ، تأليف فريد افندي حبيش

١٥ الدنيا في اميركا تأليف الاستاذ امير بقطر

١٠ مراجعات في الادب والفنون تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد

٢٠–٢٥ اناتول فرانس في مباذله، تأليف سعادة الامير شكيب ارسلان

ص

٢٠ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء تأليف اسماعيل بك مظهر

٨ التعليم والصحة تأليف الدكتور محمد بك عبد الحميد

١٢ المرأة الحديثة وكيف نسوسها بقلم الاستاذ عبد الله حسين

٥ مركز المرأة في شريعتي حمورابي وموسى ترجمة الاستاذ سليم عقاد

١٠ عشرة أيام في السودان ، تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

المقدمة

كتبتُ هـذه الفصولَ وغيرها — كثيراً غيرها — فى الفترة الطويلة التى كان فيهـا شبح الماضى — أى نعم ، طيف الماضى — يعـايشني . وكان أقرب جيراني الى نفسي ، السماء . وكنت يومئـذ — وما زلت — فى رقعـة من الأرض مدحوة للتفكير والأحلام وللموت . قد طال عهدى بها و إلفى لها حتى ليكبر فى وهمى — حين يستغرقنى روحها - أنى ههنا كنت قبل ميلادى ، وانى بعضهـا ، وقطعةٌ منها ، لو علم الناس . وهى جمة الحالات ، وان كان ظاهرها لا يكاد يلحقه تغيير ، وأقوى مايروعني من أطوارها ، فقدانُها الوعيَ ، فلو نُفخ فى الصور ما تنبهت . وقد تبـدو لى كأنّ يد القدرة التى بسطتها قد ملّتها وانصرفت عنها وشُغلت بسواها فيدركني عليهـا العطف . وكثير ما خيل إلي كأنى ألمح فيها عروقَ « العلة الاولى » وشرايينها وأنسجتها ، وانى أحس خفقها وأسمع نبضهـا . وهى ، على تفكك ذراتها ، كلٌّ كامل فى رأى العـين وفى إحساس القلب . وربما توهمتها مخًّا عاريًا يُنشيء مالا يدري . وقد يتمثل لي فيها رأىُ أرضنا — أو ما أحسبه رأيهـا — فى الحياة والمساعى حتى لأكاد أسمعها تقول بلسان هذه الصحراء للناس أو للمقادر

« ما جدوى هذه المساعى ؟ ما خير أن تزخر على ظهرى الحياة ؟ لاية غاية أو فى أى سبيل إرهاق وكدى و إملالى على الادهار ؟ انه عبث متواصل فى الوسع رفع مؤونته بالمحو والسلب . وقد تكون لهذا حكمة ، ولكنها حكمة كانت تكون عندي أعدل لو أنها شاءت ألا تكون هذه الحيوات »

وما ضربت فى هذه الصحراء ، أو صافح وجهى نسيمها ، أو سفت الرياح عليّ رمالها ، أو أدرتُ عيني فى عريهـا الازلى ، إلا هتف بي من ناحيتها هاتف بقول ابن داود

« باطل الاباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضي ودور يجىء ، والارض قائمـة الى الابد . . . كل الانهار تجرى الى البحر ، والبحر ليس بملآن . . . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الانسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر ، والاذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذى صُنع فهو الذى يُصنع ، فليس تحت الشمس جديد . . . .

« أنا الجامعة ، كنت ملكا على اسرائيل فى اورشليم ، ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات . . . فاذا الكل باطل وقبض الريح ! »

وانا أيضاً كالجامعـة ، وجهت قلبي الى المعرفة ، وامتحنتُ نفسي بالسؤال ، وعللت روحي بالتفتيش « بنيت لنفسى « آمالا »

غرست لنفسى « أوهاماً » عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها « أحلاماً » من كل نوع ثمر . . . وهذا كان نصيبي من كل تعبي... قبض الريح ! »

واستنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الارض. وكل بما عنده يجود ! زرعت حصى فى ارض صفوان وهذا حصادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس وهانذا أؤديها الى القارىء وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت ، كما سيخرج القارىء ، وكما سنخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شيء . . ؟

ابرهيم عبد القادر المازنى

سبتمبر سنة ١٩٢٧

بين القراءة والكتابة

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة فى الادب ، لانى كنت أقرأ ! والقراءة والكتابة عندى نقيضان ، وقد كنت — وما زلت — أمرءاً يتعذر عليه ، ولا يتأتى له ، أن يجمع بينهما فى فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة فى ذلك فلم يفتح الله علي بتعليل يستريح اليه العقل ويأنس له القلب. وما أظن بى الا أن الله ، جلت قدرته ، قد خلقنى على طراز «عربات الرش» ! التى تتخذها مصلحة التنظيم — خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ، ويفرغ ليمتلىء ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ فى رأسى ، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع الى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى هذا الذى خلقه الله لى خلقة عربات الرش كما قلت ! حتى اذا شعرت بالكظة ،

وضايقني الامتلاء، رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء وقمت عنه متثاقلا متثائباً مشفقاً من التخمة ، فلا ينجيني الا أن أفتح الثقوب وأسح ! ؟ وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسي: أهذا الذى ركبه الله لك يامازنى بين كتفيك رأس كرؤوس الناس أم معدة أخرى ؟؟ وأداة نظر وادراك وتفكير هو أم مخزن يكتظ حيناً ويخلو أحياناً تبعاً لانتقال الاحوال بك ؟ والحق أقول أن الجواب يعييني ! واذا لم أكن قد ركبتُ من الوهم شر الحمير ! فان الناس فى الاكثر والاعم انما يعالجون الكتابة لأن فى رؤوسهم فكرة أو خالجةً ، كائنة ما كانت ، يبغون العبارة عنها والافضاء بها ، ولست أراني كذلك ، ولقد يخيل إلي فى بعض الأحايين أن فى نفسى معنى معيناً ، ويؤكد ذلك عندى ويقرر اعتقاديه ، ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب ألتمس هذا المعنى أو الخاطر فاذا به قد تبخر ! واذا بى كابنى حين يجلس الى جانبي ويحاول أن يقبض على الدخان الذى يتصاعد من سيجارتى ، وأنا أضحك من هذا الذى يحاوله ، وألهو به وأقول انه يجرب فى عالم المحسوسات بعض ما أعانيه فى عالم المعنويات ! وكثيراً ما يدفعني الى الكتابة احساس غامض إلا انه من القوة بحيث لا يسعنى مغالبته فأتناول القلم ، وأنا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذى يثب الى يدى ، كما ينجذب الحديد الى المغناطيس ، وأسرع فى الكتابة وأمضى فيها إلى غايتها المقدورة ، شأني فى ذلك شأن الذي يسير وهو نائم! ينهض من

فراشه ويخطو، ويذهب هنا وهنا، ويتكلم أو يباشر بعض الاعمال، ولكن وعيه ليس تامًا، وارادته لا دخل لها فى شيء مما يصدر عنه.

وأحيانًا أفعل هذا: أسأل نفسى «أفى رأسك شيء؟» وأعنى بالشيء ماله قيمة، لا أى شيء على الاطلاق، فتساورنى الشكوك فأنقر بأصبعى على جوانب رأسى كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو! وربما أسفت لانى لا أستطيع أن أتناول رأسى هذا وأن أقلبه بين كفىّ وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ! ثم أقول لا بأس! القلم حاضر والورق تحت عينى، فلأقم حد هذا على صفحة ذاك، ولأفتح ثقب هذه «الحنفية» ثم فلأنظر ماذا يقطر منها أو يسيل. أوَ لا يدير أحدنا صمام «الحنفية» أحيانًا ليرى أفيها أم ليس فيها ماء؟؟ نعم! وكذلك أمتحن نفسى من حين الى حين كلما شككت وكبر فى ظنى أن رأسى قد أصبح فارغًا! ولا أفعل هذا، حين أفعله، إلا على سبيل الاختبار وطلبًا للاطمئنان لا رغبة فى الكتابة ولا عن قصد اليها. حتى اذا وجدت القلم يجرى وألفيت مراعفه تقطر، قلت الحمد لله! وأقصرت!

وقد أبدأ المقال معتمداً شيئًا بعينه فيجرى القلم بخلافه! وشبيه بهذا أن تريد السفر الى الاسكندرية فتحملك رجلاك الى قطار يذهب بك الى السويس! وأحسب ذلك انما يكون كذلك لان الكلام يفتح بعضه بعضاً وقد يفتنك وأنت تكتب، معنى يعنّ لك فيلهيك عما كنت فيه، ويدفعك من طريقه الى غير ما قصدت اليه.

وقد تأخذ فى كلام تحسبه هيناً فتتكاءدك الوعور وتتعاظمك العقبات فتميل عنه الى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله فى الكتابة على نية معقودة ثم أعدل فى بعض الطريق عنها وأتحول الى سواها ويجيء الكلام متناولاً طرفاً من هذا وأطرافاً من ذاك ويعجزنى أن أختزل مضمونه فى عنوان فأدع المقال بلا رأس وأقدمه هكذا الى الاستاذ أمين بك الرافعى فيضع هو — جزاه الله عني خيراً — ما يوافقه من العناوين !

وأمرى مع الكتب أغرب . كنت فى أول عهدى بها — أى منذ عشرين سنة أو نحو ذلك — أذهب فى أول كل شهر الى واحد من باعتها فيتقدم الى العامل سائلا عن حاجتى فأبينها له فيرفع رأسه الى الرفوف ويدور حول نفسه وهو فى مكانه ثم يلتفت اليّ وعلى شفتيه — دون عينيه — ابتسامة جهل وغباء ، ويهز لى رأسه آسفاً . فأنحيه عن الطريق وأمضى الى الرفوف وأجيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر الى ما فوق الأذنين ان كان فوقهما شيء يستحق الذكر ! وكنت لا أتخطى عتبة البيت الا متأبطاً كتاباً ، ولا تمضي علي ليلة الا طالعت فى بعضها قليلا أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسى فى وحدتى وسميرى فى خلوتى ، وكنت أستغنى بهـا عن متع الحياة ولذات العيش وأقول انها « تدخل فى متناول الحس ، العواطفَ والمدركاتِ وكلَّ ماله وجود فى العقل » وانهـا توقظ الجواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر

النفس كل ما تستطيع الطبيعةُ البشرية احتماله وكلٌّ ماله قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وتدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والابد والحق،وانها تمثل ذلك للاحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الالم والحزن والخطأ والاثم، وانها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وانها تسد النقص فى تجاريب المرء وتثير فيه تلك العواطف التى تجعل حوادث الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لانه ليس بالانسان حاجة الى التجريب الشخصى لتتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهرُ» التجريب الذى تهيؤه له الكتب. وانما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لان كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل فى الرأى قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الارادة ، ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتى التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التى تمثل هذه الحقيقة، فان فى طاقة الانسان أن يصور لنفسه ماليس له وجود حتى يعود وكأن له جسماً يحس ويلمس ، فسيان عند الانسان أن يؤثر فيه الشىء أو مثاله،لانه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن مثلا على كل حال ، وسواء أكان الشىء حاضراً أم ماثلاً فى الخيال بصورته،فان الانسان لايسعه الا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمةوالقلق والفزع والحب والاجلال والعجب والشهرة.

فكأن هـذه الرموز هى اللسان المترجم — كما يقول هوريس — عن الحقائق

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه، وكان مثلى كمثل أشعب الذى حكوا ان صِبية التفوا به وأثقلوا عليه فأراد ان يصرفهم عنه فقال لهم ان فى مكان كذا وليمة فاذهبوا اليها وأصيبوا منها،فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعـدو فى أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسخر من نفسه كذلك انقلبت عن الكتب ، فلا أنا أفدت شيئاً سوى قمع الشباب واضاعة فرصته واراقة مائه فى تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغى أن تُفهم أو سددت نقصاً فى تجاريبى أو استطعت أن استغنى « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب الشخصى ، وشر من ذلك أنى اطلعت من هـذه الكتب على صورة أو صور للحياة ، ليس أكذب منها ولا أبعد ! ولا نكران انها أيقظت نفسى وفتحت عينى ونبهت حواسى وابتعثت مشاعرى وجعلتنى أشـد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً لتلقى مؤثراتها ولكن أليس معنى ذلك انها جعلتنى أتعس وأشقى مما كنت أكون لو ظللت أرتع فى بحبوحة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفز بهذه النعمة التى لم أعد بها غنياً ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالق للرياح والمدر، كما أقول من قصيدة صنعتها بعد ان فطنت الى ما أضعت من عمرى ؟

كم غصت فى لجة الحياة فما فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر حسبته درة من الدرر !
فخل كأس العفاء تسلبني كنزى وتسحو سلاسل الخبر
ما ضرنى لو جهلت ما علمت نفسي وما قد أفادنى نظرى ؟
أو لو نسيت الذى شعرت به فى كبرى الآن أو لدن صغرى ؟
أو لو سلوت الذى كلفت به على الذى كان فيه من سُكُر ؟
أو لو فقدت الذى فرحت به وما وجدنا فى حدة الظفر ؟
أثمّ صوتٌ تعيد نبرتهُ إلىّ ذِكرَ الربيع والزهر ؟
أثم عينٌ تثير نظرتُها أحلامَ نفسى فى ريق البكر
وتنشر اللذةَ المضيئةَ لى حلماً من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمرى فى الارض زينتها من مسمع فاتن ومن نظر
وروضة العيش جد حالية من زهر مونق ومن ثمر
كأنها لافترار بهجتها تُخبر نطقاً لمدمن البصر
واهاً لقمريّها اذا اتسقت أسجاعُه واستراح للسَّحر !
واهاً لسحر فى لحظ نرجسها يسطو بوقع السجوّ والفتر !
واهاً لأيكاتها إذا همس الـ نسيمُ فى أذنها مع القمر !
لكن أغصانهن يا أسفا بعيدة من منال مهتصر
أصبت فى العزم ، لا الشعور ، فإن أدرتُ لحظى فى الشىء ، لم يدر
وان مددتُ اليدين خانهما عزمُ الشباب الجرىء ذى الاشر

يذعرنى الشيء كان يجذبنى   لشد ما أستجير بالحذر !
أحمل عبئاً من السنين فما   عسى وراء الغايات منكدرى ؟
ولى من الذكريات حاشيةٌ   فى حيث أمضى،محشودة الزّمر
فهاتها أذعر الشجون بها   حتى أراها تطير كالشرر
لمْ لا أبتُّ الذى يقيدنى   بما مضى وانقضى من العصر؟
انى أرانى قد حلت وانتسخت   مع الصبي سورةٌ من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى   – اذا رآنى – صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره   كأننى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا   فى العيش إلا تشبثُ الذكر
مات الفتى المازنىُّ ثم أتى   من مازن غيرُه على الأثر

وما أحسبنى بالغت ، فقد مات « الفتى » المازنى حقًّا ولم يبق منه شيء ! . وانى لأمر الآن بالمكاتب فأشيح بوجهى عنها وأغمض عينى دونها ، ويردنى الكتاب بكرهى فأتركه حيث يقع وأهمله الاسابيع والشهور ، واذا فتحته اكتفيت بأن أعبره تزجية للوقت ، ولم أبال من أى موضع بدأت ، وسيان عندى أن أقرأه من أوله الى آخره ، أو من آخره الى أوله أو أن لا أقرأه ، وقد تعاودنى الحمى القديمةُ ويتأوبنى الحنين الماضى الى الكتب ، فأدافع نفسى عنها ما استطعت ، فان عجزت وغلبت على أمرى طاوعتها على حذر وسايرتها متحفزاً ، وذهبتُ أتخير لها الكتب وأنتقيها ، ومهما يكن

من الأمر فلست الآن ذلك الذى كان كأنما يعبد منها دُمى وأصناماً ، ولقد اغتنمت أول فرصة سنحت فبعتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلاً !

ولكن الزامر يموت وأصابعه تلعب ! كما يقول المثل العامى ، وللعادة حكم لا يقوى المرء فى كل حين على مغالبته ، والنفس لاتطاوع المرء دائماً على مايريدها عليه من الخمود والتبلد ، وقد يزعج المرء أن يرى نفسه يقضى أيامه بطين الجسد وحده ، أو بموتها على الأصح ، فان من الموت أن يستحيل الانسان جثة خامدة المتقد لا ينقصها إلا الرمس ، وما لا يصلح سلوى ومتعة قد يصلح دواءاً ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التبلد و يخلد الى الركود ، فلا عجب اذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين

***

ولقد قرأت فى هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها فى الأدب والفلسفة ، على بغضى لها واستثقالى ظلها وعجزى عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدباً وفلسفة وهو ليس من ذلك لا فى كثير ولا فى قليل . واحسب القراء لا يعنيهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية . وهذا هو الذى سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولاً نستطرد فيها ومنها إلى أبواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبدأ «بحديث الاربعاء»

الذى وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولسنا ندرى بأى كتاب آخر يمكن أن نثنى فان كتاب الدكتور يضطرنا الى النظر فى امور عديدة ، والخلاف بيننا و بينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيمن كسر كتابه عليهم من مثل ابى نواس و بشار وغيرهما ، وفى العصر العباسى كله ، رأى يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظرته ، وحسبك دليلاً على بعد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبى نواس « أما ابو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذريا وما كان يستطيع ان يكون عذريا،وهو الرجل الذى شك فى كل شىء ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد فى ذلك بحرج أو جناح ، ولم يكن عذريا ولم يكن يتكلف أن يكون عذريا وانما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وانما كان يهتم باللذة و بلذة غير التى كان يهيم بها عمر ابن ابى ربيعة » .. الى ان يقول « .. ان ابا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على إن تعجب بهذا الغزل رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين الخ »

أما نحن فقد قلنا فى المقدمة التى وضعناها للجزء الثانى من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحسّ الناس وأعمقهم حكمة وأصحهم ادراكاً لخلال الخير وخصال الفضل — نقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رؤوسهم انكاراً فان الشعر أساسه صحة الإدراك الاخلاقى والادبى ، ولست بواجد شعراً الا وفى مطاويه ادراك اخلاقى ادبى صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا

الادراك الادبي تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارئ فيحسب انا نقصد الى اظهار الاحساس الديني في الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره وينابيعه ، ولا ينبغي كذلك ان يستخلص أن الشاعر يجب أن يكون صاحب مبدأ عملي لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشاعر الانجليزي وأبو نواس وامرؤ القيس متقلبي وجوه الحياة ومظاهرها ولكن نصيبهم مع ذلك من صحة الادراك الاخلاقي والأدبي عظيم ، ولئن كان لهم معايب نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليق ان تنظر الى ما وراء ذلك . فان ابا نواس اصح مبادئ وانقى ضميراً من البحتري على كثرة ما تقرؤه للأول مما يروع ويخجل ، وكذلك امرؤ القيس افطن الى معاني الفضيلة واعظم رجولة من ابي تمام وابن المعتز ، ولم يكن الأعشى على حبه الخمر واستهتاره بها وتخلعه فيها بالرجل الناضب الفضيلة الخ» الى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك في يناير سنة ١٩١٧ ولقد غبرت أعوام ثمانية فلم تزدنا الا اقتناعاً بهذا الرأي الذي اشرنا اليه في ذلك الوقت اشارة من لا يحس ان المسألة تحتاج الى افاضة .

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى الخلاف بين الرأيين ولتدرك ما في المسألة من دقة وتعويص ، لا يسع المرء حيالها إلا ان يسأل الله السلامة .

على شاطىء بحر الروم

بين البحر والصحراء !!

أكتب هذا الفصل على شاطىء البحر الأبيض أو بحر الروم ، وقد كتبت الذى قبله على حدود الصحراء ، وللكلام ، كما للناس ، حظوظ ، والمعانى والخواطر أرزاق ، ولقد أذكر أني كنت ذاهباً الى مصر الجديدة مع طائفة من الاصدقاء فى واحد منهم شذوذ وكان يكتب فى الترام ! وانه ليكتب كلمة « السؤدد » إذ انطفأ النور فخط « دالاً » في النور و « دالاً » فى الظلام ! ولو انى كنت اليوم فى القاهرة وفى بيتى الذى اتخذته على « تخوم العالمين » لكان الارجح فى الرأى والاقرب الى الاحتمال أن يجرى القلم بغير ما يسطره الآن ، فأن النفس كالزجاج الحساس تنطبع عليها وترتسم فيها صور ما يحيط بها ، ولقد كان العزم أن أقول غير ما أنا قائله ، ولكن المقادير قذفت بى الى البحر ، لا فيه والحمد لله ، فتحلل العزم ، ومُسح من اللوح ما كانت الصحراء قد نقشت عليه ، ولو خُيرت لاخترت

مقامى القديم ، ولآثرت أن أكون فى هذه الساعة التى أكتب فيها حيث كنت فى الاسبوع المنصرم : الى يمينى الصحراء ، والى يسارى المقابر ! واحدة تعلو بى ، وأخرى تهبط ، وأذا استأثرت معانى الأبد والجلال بالقلب ردته الى الدنيا ومصائر الخلق فيها هذه الأجداثُ المتلاصقة والعوالم الانسانية التى خرجت من التراب وعادت اليه وتحللت واستسرت فيه .

غير أنى ألفيت نفسى جالسًا على شاطىء بحر الروم أنظر اليه وأتأمل عبابه المزبد وموجه المتجدد ، والشمس تنحدر عنه وتبسط عليه أشعتها المتوهجة ، وأواذيه كقطع الجبال المتقلعة تتدفع الى الشاطىء وتستبق سيفه فيغيب بعضها فى بعض وترغى وترعد وتصفر وتهمس وترقص وتضحك وتمحو ما أخطه على الرمل ! ولا أدرى لماذا أذكرنى هذا المنظر ما أنستنيه الأيام من الاقاصيص التى كانت تسلينا وتروعنا وتعمر بها فضاء حيواتنا الصغيرة ، العجائزُ من ذوات قرابتنا أو جيراننا ، إذ يجلس الطفل منا الى إحداهن ويرهف أذنيه ويود لو صارت كل جارحة فيه مسمعًا ، وقلبه الصغير يخفق وكلما أغربت العجوز فى القصة وتبسطت فى وصف الجان والمردة أو السحرة وأسهبت فى سرد أعمالهم ، أدار هو لحظه خلسة فى المكان كالذى ينفضه بعينه أو يخشى أن يظهر له عفريت من أحد أركانه ، وراح يدنو منها ويزحف اليهـا حتى يلصق بها ، على حين كانت الفتياتُ الناهدات متكئاتٍ فى سكون على حوافى النوافذ أو

الشرفات ، ووجوههن الصبيحة ، التى كأنما غذتها الورودُ ، يضيئها القمرُ الواجم السارى فى حاشية من النجوم اليتيمة العـذراء التى ينقصها ، مثلهن ، الحبُّ !

ولم يتغير البحر عما عهدته ! كل شىء فيه كما كان فى العصر الخالى الا المدينة القائمة على ساحله فقد كانت فى بعض أيامها الخوالى تشغل مكان أثينا فلم يبق لها من سالف عزها الا البوم والسفسطائيون ! حتى آلهة الاغريق استنكفوا على مايظهر أن يتراجعوا الى الاسكندرية بعد أن ثل الزمنُ عروشهم ونفاهم وشردهم عن ملك السماء ، ولم يرض ملك السماء ذو الخصـل البيضاء أن يأوى اليهـا ويعوذ بها بعد أولمبيا ، وآثر عليها التشرد بصاعقته الخامدة ، وضن بنفسه عليها زيوس وتجافى عنها وان كان لم يربأ بنفسه عن عزل أبيه وطرد أعمامه وعن الاستهتاك بين الغلمان الذين كان يهبط الى الارض على خلقة النسر ليخطفهم ويصعد بهم إلى ملكوته ويكايد بقبلاتهم زوجَه ! وكم عذلته فى جَنميد وأنبته على مشاربته فى كأس واحدة فكان يقول لها مستهتراً لو شربت بعده من هذه الكاس لأقصرت ولم تلومى ! وشاهدى على صحة الرواية « لوسيان ! »

وما وقفت قط على هذا البحر الا أحسست أنى مثله ، وإلا هممت أن أنظم هذه الابيات مرة أخرى :

أنا البحر – لا كرمًا ! – إننى   تكفل بالفقر لى المفضل ؟ !
ولـكننى البحر ما إن له   قرار وما أن له موئلُ

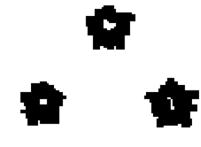
وتجلده الريح إن زمزمت　　جنوبٌ لها أو زفت شمأل
ويجـذب أمواهه كوكبٌ　　ويدفعها وهو لا يحفـل
وفى قاعه دره راسب　　ومن دونه الخطر الأهول
وتعتام صفحته ركدةٌ　　وفى سره ثورة تشعل
ويلتمس الشطَّ مستروحاً　　فيهزمه الرمل والجندل
أنا البحر، لكنني غارق　　بنفسي فمن ذا عسى ينشل ؟
أصارع تياره جاهـداً　　وفى أذنى رعـده المرسل
وأومى الى الناس لو أبصروا　　وقد يخطىء العونَ من يسأل
فهل عاذر إن ونت همة　　وناء بما يحمل المثقـل ؟
وهل شاهد ؟ أن بى حاجة　　الى شاهد صادق يعدل الخ

وكأنما ضاق صدرى بما أجن وقلبي بما أثار البحر من خليط الذكريات وحرك من الآمال، فنهضت عن الصخرة التى كنت قاعداً عليها ودهورت هذه الابيات فى أشداقى وانطلقت أنشد الريح إياها !! ومن عسانى أنشد سواها ؟ فى أى اذن غير اذنها أفرغها أو أهمس بها ؟ فى أية نفس انسانية أجد لنفسي كهفاً يتجاوب بأصـداء عواطفى وخوالجى ؟ عند من من الخلق أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ؟

أين فى الناس وردتان تميلا　　ن معاً للنسيم من حيث جاء ؟

كما تساءلت قديماً ؟ ثم أهبت بقصائدى التى لم أنظمها — قصائدى الجياد التى لم تندَّ قط عن صدرى وان كانت تعمره ، ولم ينطلق بها لسانى وان تكن على طرفه ، والتى لولا مشيئة الاقدار لذهبتها بأصيل

هــذه الشمس الغاربة ونسجت منها تاجًا لرأسكِ الذي يتوسد التراب ، ولفصلت من زرقة السماء الحالية بنجوم الليل المتوامضة ، ثوبًا متألقًا ينسجم على كتفيكِ وينسدل الى قدميكِ !



وغابت الشمس وانتشرت على الارض غياباتُ الطفل ، فعدت الى مقعدى أنظر الى الموج المشرئب ، وجاش صدرى مثله وجعلت طيوفُ الماضى تبرز من ظلامه وتخطر أمامى ثم تغيب ويلفها ما هو أظلم ، ولكن طيفًا واحداً ظل ماثلاً لعينى فى حيثما أدرتها ، ومالئًا شعابَ نفسى بالاحساس به ، ومناجيًا لى من زفيف الرياح وتهزم الامواج ، وفيه وفىّ تمثل الحب المفقود والأمل الضائع ! وخامرنى هذا الخاطر وألح على حتى خالتنى جثةَ غريق ردها الموج الطاغى الى رمال الشاطىء ! ولج بى هذا الوهمُ حتى مات عن الصخرة الى الرمال ورقدت عليها وأومأت الى الامواج أن اركدى فقــد ذهب كل شىء : انتسخ الامل وغاض معين الحب وجفت الحياة !

ثم تناولت عوداً كان ملقى الى جانبى ، وخططت به كلمات على الرمال البليلة ، غير أن الامواج طغت عليها وغسلتها وعادت بها ولم تترك لى حتى اسمى الذى رسمته فى آخرها ! فياما أوهى العود وأخون الرمال وأطغى هذه المياه المتحدرة !

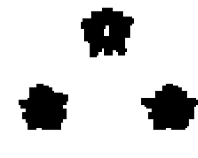
بأى شىء إذن أكتب ؟؟ أأقتطع جذع شجرة بلوط وأغمسه فى بركان وأسطر به ما أريد على صفحة السماء ليبقى !؟!

* * *

ولكم وقفت من قبل على شاطىء هذا البحر بعينه ، وفى مثل هذا الأوان ، مجيلا عينى فى قبة السماء اللازوردية ، ومرسلاً لحاظى فى البحر والرمال والصخور ، وقائلاً لذوات المناقير السوداء إذ تعب بها من الماء وتلقط ما يتقاذف منه : « أيتها الاطيار ! أن حياتك مرة مشنوءة كطعامك وشرابك ! ولشد ما أتمنى أن أعطيك مما أعطانيه الله ، وأن أُنشقك ما أشمه من الازاهير والرياحين ، وأطعمك مما آكل من لحم غريض وخضر مستطابة وفاكهة شتى ، وأن أشعرك ما أشعر وأتمتع به من لذاذات الحب المتبـادل ! فأن لى لشريكة تحبنى ، وانى لأراها الآن بعين الخيال مطلة من النافذة منتظرة أوبتى الى وكرها ومشتاقة رجعتى الى عشها »

وكانت الأطيار تقضى وطرها وتذهب عنى ولا تحفل غبطتى ولا تبالى طعامى ورياحينَ أنفى وعينى ونفسى ، وما أظنها الآن الا قائلة لى « يا من كان يفاخر بغبطته ما ذا أنت اليوم ؟ ما ذا صنع الله بآمالك التى أنشأتها وربيتها واعتززت بها ، وأحلامك التى نسجها قلبك حول حياتك ؟ انظر الظلمة التى تغشى ذهنك ! وتأمل الخفافيش التى تمرح فيه ! اليس الماء الملح الذى نكرع منه وقذائف البحر التى نلتقطها أهنأ وأرغد ؟ »

فأطرق وأقول : أى والله صدقتِ ! ولشد ما أتمنى أن يكون لى منقارك الاسود !

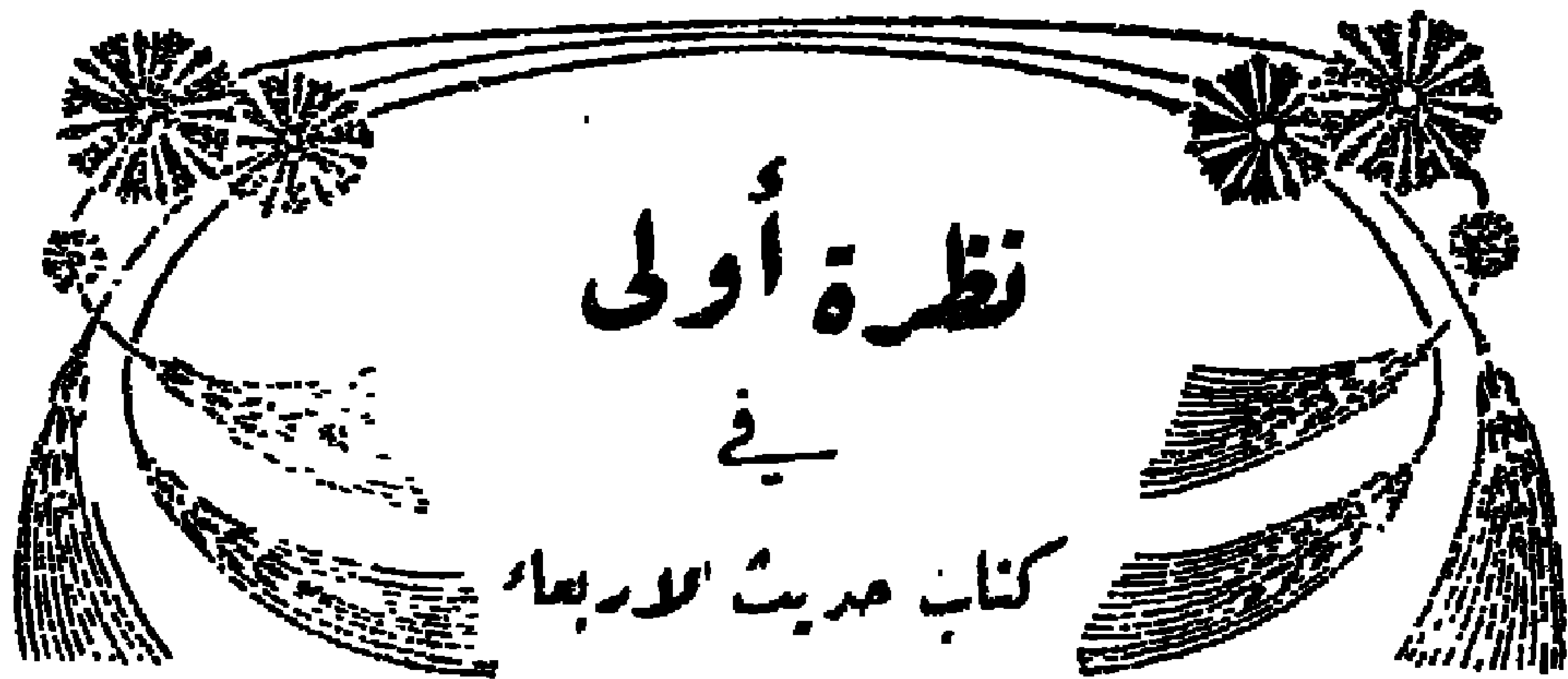


كلا ! صحرائى أرفق بى من هذا البحر العاتى الذى لم يتغير منه شىء ، والذى يهيج النفسَ الى ما بها ، ويُعديها ، فتجيش مثله وتتدفع فيها العواطف وتتلاطم وتتزاخر ، ومن لى بالقدرة على نقل هذه الصحراء التى ألفتها وأحببتها ، معى فى حلى وترحالى ، وفرشها وبسطها حولى فى حيثما أكون من الارض ؟؟ نعم ليت هذا فى وسع انسان !! اذن لاستطعت أن اطويها كلما غادرت بقعتها ، وان الفها مع ثيابى واشيائى فى حقيبتى ، حتى اذا نزلت مكاناً واستوحشت نفسى أنست بأن اخرجها وانشرها امامى واتأملها وأذكر بها ليالى فيها بما اشتملت عليه من خير وشر ، وسرور وحزن ، وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها منى أو بى منها ؟ مالى وللماء الذى لا تطمئن اليه قدم ولا يثبت على حال ولا ينفك ينقلب فيه القديم جديداً ، والماضى مقبلاً ، والمقبل مدبراً ، ولا يفتأ بعضه يفنى فى بعض ؟ ؟ ولعل السبب فى حبيها وايثارها ان بى مشابه منها ! وأنى أجتلى فى انبساط رقعتها وترامى اطرافها وتقاذف ارجائهـا وجدبها وعريها وتجردها من كل زينة تحفل بها رقع الارض الاخرى ، صورةً من نفسى التى تنبسط للحياة ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتُحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيـا بها عماراً ، وعسى أن يكون كلفى بها لذكرياتى ومعاهدى فيها ، وعلى انه أى داع يستوجب ان اعلل هذه « العاطفة » التى انطوى عليها للصحراء ؟ ؟

ولما كنت مع الاسف لا استطيع ان انقلها معى الى حيث اذهب فانى اكر اليها راجعاً على جناح الخيال ، واراها بضمير الفؤاد كلما خفيت عن عينى . وانى الآن لأتلفت من البحر اليها ، وأنقل عينى فى جنباتها واسرح طرفى فى ارجائها ، وحسبك من قوة شعورى بها ، ومن فرط استيلائها على خاطرى واستبدادها بنفسى ، انى نظمت هذه الابيات فى بقعة منها فيها آثار بلدة الفسطاط ، اناجى بها ليلة سهرتها بها وعهداً كان لى فيها :

أيا بلدة الفسطاط ما انت بلدة ... ولكنما طيفٌ لمؤتنف الخفض
طواك قضاء الله فى الارض حقبة ... وانشرك الانسان نقضاً الى نقض
خطوط وانقاض كما جاهد الفتى ... ليحيي ذكرى وهى تمعن فى الغمض
خرائب من حولى وفى النفس مثلها ... وأهول منها ، ويل بعضى من بعض!
وكم خلت نفسى بعض ادراس نؤيها ... فأقررت حتى كان يفزعنى نبضى!
قضيت بها ليلاً طويلاً قصيره ... وهل تقصر الليلات من شدة الخفض؟؟
فوا أسفا! لو ههنا كنت لأنثنى ... قصيراً علىّ الليل ذو الطول والعرض !
لأوحشتنى لما خلت منك رقعتى ... ولم تؤنسى ذا وحشة فى حشى الارض
أآسفة للموت أم أنت يا ترى ... اراحك منى الله ذو البسط والقبض ؟

فانت ترى كيف تغلب طيف الصحراء على البحر المالح ، ولا عجب ! فان نفسى ، كما قلت ، بالصحراء أشبه واليها اقرب !



كلمة فى الاسلوب أولاً . . . .

لنا فى الاسلوب رأى قديم يعرفه من يعرفنا ، ذهبنا اليه فى صدر حياتنا ، وثبتنا عليه الى يومنا هذا ، ولسنا نتخذ من الثبات على رأيٍ مفخرة ، فانه لا يخفى علينا ان هـذا « قد » يكون مرده فى بعض الاحيان الى الافلاس العقلى – ان صح هذا التعبير – أو الى ضعف الخيال ، او غير ذلك مما أترك للقارىء استقصاءه اذا شاء ، فقـد علمتني الايام ان اكون أرفق بنفسى من ان ارهقها او احمل عليها اكراماً لسواد عيون القراء !! ولماذا لا يتكلف القارىء شيئاً من النصب ؟ ؟ ولله ، فاعلم ، معشرٌ فقراء العقول ، يفرح احدُهم ان يكون له رأى ما ، فيضن به ويحرص عليه ، ولسنا من هؤلاء فيانرجو!

وسنبسط رأينا ونعيده بأوضح مما فعلناه قديماً حين كنا نعتقد ان المسألة ادخل فى باب البديهيات من ان تحتاج الى افاضة او تحتمل اسهاباً ، فنقول ان الغرض الاول من الكتابة على العموم هو الإفهام

أو نقل الخاطر من رأس الى رأس ، والخالجة ، كائنــة ما كانت ، من نفس الى نفس ، ومعلوم ان الالفاظ ليست هى المعانى وانما هى رموز لها ، تدل عليها وتشير اليها ، كما تفعل ايماءات الخرس التى يتفاهمون بهــا ونظراتهم وحركات وجوههم واصواتهم القليلة التى يستطيعون اخراجها ، ولو ان اشارات الخرس كثيرة كالالفاظ فى اللغة ، لوفت بكل غرض تعين عليــه الالفاظ ولأغنت غناءها ، وغير منكور ان الالفاظ مهما بلغت كثرتها ، محصورة ، وان المعانى على خلاف ذلك لا آخر لها ولا نهاية ، ومن هنا كان لا معدى عن العناية بانتقاء اشف الالفاظ عن المراد واحكمها اداء للمقصود ، والا كان الكلام لا خير فيه ولا طائل تحتــه ، وماذا عسي ان تكون قيمــة كلام لا يؤدى الغرض منه ولا يفهم منه قارؤه او سامعه الا كما يرى المرء فى الضباب الكثيف ؟ ؟

فالإفهام او نقل الخالجة على العموم الى نفس اخرى هو الغرض الاول من الكتابة على وجه الاجمال ولكن هــذه ليست الا درجة اولى فوقها اخرى يحاول من يسميهم الناس ادباء وشعراء ان يرقوا اليها، وهى طبقة الكتابة الفنية التى لا يكون المطلوب فيها مجردَ الافهام وايلاج المعنى او الخاطر ذهنَ القارىء بل التأثير، وكما ان الانسان لم يكتف بالاصوات الكلامية وابى الا ان يغني وان يرفع عقيرته ، حين يحس الحاجة الى ذلك او الرغبة فيــه ، بتواليف صوتية تطربه وتشجيه ، وكما انه لم يسعه ان يقنع من المساكن بمــا يقيه الشمس

والرياح والامطار والضوارى ، ومن الثياب بما يعينه على احتمال الاجواء المختلفه و يستره ، بعد ان ارهفت الحياةُ احساسه ورقته ، ومن الطعام بما يسد الرمق و يدفع غائلة الجوع و يؤتيه القوة ، ومن المراكب على انواعها بما فيه الكفاية فحسب ، نقول كما ان الانسان ابت له طبيعته التى ركبها فيه خالقه، الا ان يجاوز ما تتطلبه الضرورة القصوى فى طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وفى كل شيء آخر ، كذلك لم يطق صبراً على الاكتفاء من الكتابة بما تُبلغ اليه من الاغراض الاولى ، وطمع فيما هو اكثر من ذلك و بغى ما وراءه فنشأ الادب

وليس من الضرورى ان يكون المرء على جانب عظيم من الثقافة والتهذيب ليطلب الفنّ فى حياته ، فان الانسان حيوان فنى ، وانك لتجد الرجل الأمى الكثيف العقل « السميك » الوجه يضفر شعر حماره و يفرقه و يرسله على صفحتى عنقه و يفضّض له لجامه و يذهّب سرجه و يركبه مترفقاً و يمشى به مختالاً و ينزل عنه و يسايره و ينظر اليه باديًا من بعيد ومن قريب و يربّته و يلاطفه و يمسح له وجهه وقد تفيض نفسه سروراً بمنظره فيقبّله ! ؟ ولو انه كان لا يتخذه إلا مركبًا يريحه من عناء السير وجهده ، لما كلف نفسه ان يحليه ولما عُنى بتجميل ادواته من سرج ولجام وغير ذلك ، و باراحته جهد طاقته ، و بعلفه ماوسعه الانفاق ، فهى عاطفة فنية ملكت عليه قلبه واستولت على لبه ، وكان مظهرها العنايةَ بتجميل اتانه !

ولكن الحمير ، والحمد لله، ليست كل ما يمكن ان يكون مظهراً لهذه العاطفة الفنية ! وما يستطاع فى عالم الحمير واشباهها من أبناء ابينا الشيخ آدم رحمة الله عليه وغفرانه له ! يستطاع مثله فى عوالم الكتابة والشعر والموسيقى والتصوير ، وما منا الا من ينبغى ان يكون فى فنه افعل باللب وأسحرَ للقلب وأملأ للعين وأوقع فى النفس ، ولكن الكتابة لا تكون فنية من تلقاء نفسها، وانما تصير كذلك بما يحدثه المرء فيها من الصور، وما يوفق اليه من الاحسان والتجويد ، ولا بد لذلك فيما نظن ! من صحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة والاستعداد ، فان الالفاظ موجودة ، وهى ملقاة فى طريقنا جميعاً وعلى طرف كل قلم ولسان ولو ان العبرة كانت بالالفاظ وحدها . وكان المعول على مقدار محصول المرء منها لكان اكبر الادباء هم جماعة اللغويين والحفاظ، ولكان ابن منظور والفيروز بادى مثلا شيخى ادباء العرب وشعرائهم ، كذلك الموسيقى اصوات، وليس يعيي أحداً أن يتوفر عليها ويحذقها ويمهر فى توقيعها، وقد لا يعجزه أن يصنع بضعة ألحان قليلة اوكثيرة، ولكن ليس كل احد يستطيع أن يكون بيتهوفن أو فاجنر او شوبان ، والتصوير أيضاً اصباغ وألوان ، أو قل — ان شئت — ان هـذه هى مادته ووسائطه، ولكن العلم بها وبأصول الرسم وقواعده ليس حسبَ المرء ليكون مصوراً حتى من الاوساط فضلا عن الفحول من أمثال روفائيل وتيتيان ، وما لنا لا نسوق الامثال مما هو ألصق بحياتنا

اليومية ؟ خذ صناعة النجارة مثلا وقل لى لماذا لا يستطيع كل نجار أن يكون ككل نجـار ؟ ما السر فى أن واحداً يُخرج قطعةً تدخل السرور على كل نفس وتحب أن تتعلق بها وتتمهل عندها كلُّ عين ، على حين يُخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علماً بالصناعةودربةً عليها مالا يروق ولا يعجب ولا يعدو أن يكون قطعــة منجورة وأخشاباً بعضها الى بعض والسلام ؟ نريد أن نقول ان فن الكتابة ، ككل فن ، يتطلب استعداداً طبيعياً وأنه – ككل فن أيضاً – لا غنى عن الجمال فيه،وماذا يكون قولك فى رجل يزعم ان سيغنّيك ثم لايسمعك الا أصواتاً متنافرة أو ضوضاء منكرة ؟ او فى آخر يقول لك هــذه صورة فنيةفاذا نظرت اليهالم تلمح فيها ما يميزها عن النقل الفوتوغرافى؟ وكالنقل الفوتوغرافى الكتابةُ العادية التى لا يقصــد منها الا الى الافهام ، وكالتصوير الفنى لغة الادب

ولا يَفهم أحد من كلامنا أننا نقصد الى التكلف و إثقال الكلام بالحلى والزينة ، فما يخطر لنا شيء من ذلك ، وانما نعنى ان الادب فن ، وأنه لا بد فى كل فن من الاحسان والتجويد ، ولكل امرىء طريقة هو مؤثرها أو موفقٌ اليهــا لابراز المعنى فى أحسن معرض ، وليست المزية فى التأنق والتحبير فان للجمال العاطل أيضاً موقعاً حسناً وروعةً ونضرة ، بل المزية فى ابراز المعــانى فى أحسن حلاها كيفما كانت ، وكلٌّ ميسر لما خلق له ، فواحد يوشى الكلام و يطرزه ، وثان يرسله غفلاً ، وثالث يدق لفظه و يشف حتى لتتخطاه العين

كأنما يعرض لك المعاني فى ظروف من النور ، ورابع يفرغ خواطره فى قوالب ملئت قوة وجمالاً وهكذا . والاحسان فى كل ذلك والقدرة عليه ، ملكة لا تحصل بالمعاناة ولا تتهيأ بالدرس والتحصيل وان كان هذا مما يقويها وينميها . ولا نطيل القول . فأيما رجل زعم نفسه كاتباً أديباً وخلا كلامه من عناصر الجمال فقل له لست به

والآن ، ما رأينا فى اساوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟ ! الحق أن هذا موضوع يدق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفى عزمى أن أفيض فى بيان رأيي فى الاسلوب ولكنى لم اكد أسود بضعة سطور حتى الفيت نفسى أوجز وأوجز وأوصد كل باب موارَب فى طريقى واضيق دائرة البحث ثم اذا بي اسأل نفسى ما رأيي فى اسلوب الدكتور ! ؟ ولقد تقمصنى والله عفريت النقد ! وانى لأحس ان عينيّ قد احمرتا ، ويبلغ من احساسى بذلك او توهمى اياه انى اهم بالتطلع الى وجهى فى المرآة ! ولا اكتم القراء انى صرت اؤمن بأن لكل منا شيطاناً ، واحسب شيطانى من اخبث الشياطين ، فانه يزج بي فى مآزق لا ارضاها لنفسى لو كان الأمر لى ، وان على مكتبى لأكثر من خمسة عشر كتاباً استطيع ان اتناولها بما شئت من النقد وانا آمن أن التى اصحابها اذ كنت لا اعرفهم ، ولكن شيطانى الخبيث ظل يخايلنى بكتاب الدكتور حتى اخرجته من بين اخواته وقلت له : « تعال يا هذا » واخذت اقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الاضحى ؟ ! والحق اقول انه اعجبنى !

وانا التى الدكتور كل يوم واحادثه اكثر مما احادث نفسى ، ولكم قلت لنفسى وهو لا يدرى : « لا يا شيخ ! دع كتاب الدكتور الى سواه ، فان للزمالة حقاً واجب الرعاية وستخجل ان تلقاه بوجهك هذا إن نقدته » ثم لا اكاد اخلو بنفسى حتى يهمس فى اذنى ذلك العفريت اللعين : ان الادب فوق الصداقة والزمالة ، وان بروتوس كان يقول « انى احب قيصر ولكن رومية احب الىّ » وان لك كتاباً كما له كتاب فلينقده اذا احب ، وليس من شأن النقد الادبى أن يفسد ما بين الصديقين . وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتى : —

« الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكى الفؤاد جرىء القلب، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وانفته ، و يعلق بقلبك اخلاصه ووفاؤه ، و يثقل عليك احياناً اعتداده بنفسه ! ولما كان قد ألف ان يملى كتبه ورسائله ومقالاته ، فان كتبه وحديثه ، حين يجدّ ، فى مستوى واحد ، كائناً ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى احاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيات، و يندر فى غيره مثل ذلك ، ومن شأن الاملاء ان يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجملَ قصيرة فلا تطول مسافةُ ما بين اولها وآخرها ، وان يغرى بالتكرير والاعادة الى حد ما ، كما هو الشأن فى الخطابة ، ومن هنا كان اسلوب الدكتور طه خطابياً ، او قل ان الصبغة الخطابية فيه اغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها اوضح ،

فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب الى القارىء كما تفعل حين تحادث جليساً لك، و يقصر جمله و يؤكد عباراته بالتكرير والاعادة، و يلتمس التأثير من طريق ذلك، حتى لتحس وانت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة، و يومىء بأصبعه لما وصل الى تلك الى آخر ذلك .

« والخطابة فن مختلف جداً عن فن الكتابة ، واحسب انه لو كان الدكتور قد القى هذه الرسائل ولم يكتبها، لما جاءت إلا كما هى الآن،ومن شاء ان يكون منصفاً وان يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر اليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة .

« اذن أنا اخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ! ولا اراها الا خطباً مدونة . ولست اريد ان اقف حتى هنا . بل ازيد على ذلك واضيف اليه انها خلت من مزايا الفنين جميعاً . ! فاما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يمليها املاءثم لا يعود اليها بتنقيح او تهذيب ، ولو انه كان يتعهدها بعد ان يمليها بشىء من الاصلاح لخلت على الارجح من اكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعتورها من العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق فى قوله « انى ما كتبت فصلا الا وانا أعلم انه شديد النقص محتاج الى استئناف العنــاية به والنظر فيه ، وانا اقدر ان سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى اذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت

لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزماً ان استأنف العناية به والنظر فيه مستحيياً ان اقدمه الى الناس على ما فيه من نقص وحاجة الى الاصلاح ، والايام تمضى والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة اشد الاختلاف واعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائماً بينى و بين ما كنت اريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتاب وأى الباحثين لا يشكو مثل هذا فى مثل هذه الايام التى نعيش فيها ؟ »

واما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليهـا على انها خطب تلقى بل على انها مقالات وفصول تقرأ،وان كانت طبيعة اعتياد الاملاء تجعلها اقرب الى الخطب منها الى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة اذا قلنا انها خالية مما لم يتحره فيهـا : اى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما ان الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرأونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها ان الناس يقرأونها ولا يسمعونه يلقيها !

« ولا شك ان اظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل ، وعندنا ان علة ذلك ليست فقط انه يملى ولا يراجع ما يملى بل الامر يرجع فى اعتقادنا الى سببين جوهريين : اولهما ان ما اصيب به فى حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع ان نقدر كل مداه ، فى الاسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفى طريقة العبارة عن معانيه واغراضه ، ولسنا نتحرج ان نذكر ذلك ،

فانه اعرف بنا من ان يشك فى عطفنا ، بل نحن أعلى به عينا واسمى تقديراً من ان نعتقد ان به حاجة الى هذا العطف ، وليس يخفى ان المرء اذا حيل بينه و بين المرئيات ضعف أثرها فى نفسه، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى فى احضار الصورة المقصودة الى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد الا الاسهاب ومحاولة الاحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

« وثانى هذين السببين انه استاذ مدرس وقد طال عهده بذلك، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط فى الايضـاح والاطناب فى الشرح، والتكرير ايضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : واعنى انها تدفع المرء عن الاغوار والاعماق، الى السطوح . و بعبارة أجلى تضطر المدرس ان يجتنب التعمق والغوص، وان يكتفى — ما وسعه الاكتفاء — بما لا عسر فى فهمه ولا عناء فى تلقيـه . وتلك آفة التدريس ولولا انى اعرف كلفه به واقباله عليه وهشه له ، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحنى »

قال المازنى : وهنا صرف الله عنى السوء واذهب عنى الشيطان فوضعت القلم وانا احمد الله على ان لم يستكتبنى إلا هذا التحليل البرىء .



مما يحببني فى الصحراء أن لى فيها سميرين : أحدهما رجل ساذج لا يزال على الفطرة على الرغم مما يحمل من عبء السنين على كتفيه ، ومن ثقل لحيته الكثة على خديه ! وخير ما فيه انه يسمح لى أن أمشط له شعراتها الطويلة وأفتلها ، بقرش يأخذه ؟ ! وناهيك به من منظر ليس أروح منه للصدر : منظر وجه حوله مثل الاطار من هذا الشعر المفتول ، وفوقه عمامة خضراء ضخمة تهوى الى الحاجبين وتخفى حتى الاذنين ! ولصاحبنا هذا رأى طريف فى صديقنا الدكتور طه حسين ! فهو عنده من أولياء الله الصالحين ! ولكتابه فى نفسه روعة وحرمة ، اذا رآه انبسطت أسارير وجهه والتمعت عيناه ثم مد اليه كلتا يديه ، كالمتسول حين تدفع اليه صحناً فيه طعام ! وتناوله مُبسملاً محركاً شفتيه بما شاء الله ، وسبحان الوهاب ! وأمسكه مقلوباً ! فان صاحبنا بفضل الله أمي ! ؟ وأخذ ينظر اليه ويُنغض رأسه المثقل بالعمامة ويبسبس بشفتيه اعجاباً ، وسر ذلك كله انه يعتقد — على مافهم

مني !– ان الدكتور لا يكلم الناس الا يوم الاربعاء !! وانه يتناول فى كتابه سيرةَ والبة بن الحباب رضى الله عنه ! وحماد عجرد قدس الله سره !! وأبي نواس القطب الاعظم ! وقد توسل إلي مرة ان أقرأ له شيئًا من فيض الدكتور فتعمدت ان أنشده للنواسى هذه الابيات :

مالى وللعاذلات زوقن لى ترهات
سعين من كل فج يلمن فى مولاتى
يأمرنني أن أخلى من راحتيّ حياتى
وذاك مالا ولالا يكون حتى المات
والله منزل طـه والطور والذاريات
الر وصاد وقاف والحشر والمرسلات
ورب هود ونون والنور والنازعات

ثم امسكتُ لان الرجل كان قد سرى فى مفاصله كحميا الخمر فجعل يدق ركبتيه بكفيه ، ويهز رأسه فى كل ناحية هزاً عنيفاً أشفقت عليه منه وخفت ان ينكسر عنقه . ومنذ ذلك الحين صار النواسى قطباً والدكتور وليًا نفعنا الله بهما . آمين ! وبلغ من اكباره لصديقنا وحسن اعتقاده فيه ان سألني ان اشفع له عنده ليعطيه عهداً ! وهاءنذا أؤدى الرسالة ! فهل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وثانى السميرين الانيسين سحلية . نعم سحلية ! واى غرابة فى ذلك ؟ الا يتخذ الناسُ الكلابَ ويصطحبونها فى غدواتهم وروحاتهم ؟ الم يكن اباؤنا المصريون القدماء يعبدون حتى القطط ؟

والسحالى كثيرة فى صحرائى هذه . و يظهر انها أحست مني الحبَّ لها والشوقَ الى الاتصال بهـا فما خرجت الى الصحراء مرة أو جلست على باب البيت الا برزت لى السحالى من الشقوق وراحت تدور حولى مطمئنة غير وجلة ، وتخطر أمامي وترفع لى ذيلها بالتحيـة ؟ و بعضها مخطط الجلد منقوش الذيل على نحو ما ترى على آثار آبائنا الفراعنة . وما يدرينا و يدريك؟ لعل ههنا هيكلا قديمًا مدفونًا ولعل هذه السحالى كهنة مسحورن ! فان صح هـذا فقد تكون على هذه الذيول القصيرة أسرارٌ عويصة منقوشة لو ظفر بحلها واحد من أمثال « برستيد » لجلا لنا من أنباء القرون الخالية وحقائق الطبيعة الماكرة ما ينقب عليه أمثاله عبثًا فى فدافد الصعيد !

ولا بد لحبها والفتها اياى واطمئنانها اليَّ من سر ، وأحسبه انها لمحت فىَّ مشابه منها ! أو كأنى بها تعتقد أنى كنتُ سأخلق على صورتها ثم عدل بى خالقى ، جلت حكمته ، الى ما هو أدنى وأهون . أعنى صورة الاناسى ! فان كان هـذا هكذا فلعله السبب فى أن عينى تقع على الشقوق بسرعة ، وانى كلما أمسكت عصًا الفيتُنى أعالج أن أغرسهـا فى الارض أو أن أحفر بها فى جوفها ، ولكم فكرت فى هذا فتمنيت أن يتيح الله لنا عالما ذكيًا لبقًا يثبت تناسخ الارواح ! اذن لكان هذا أبسط حل لهذه المعضلة !

وأنا ألاحظها وأجعلها قيـد عينى كلما ذهبت تنساب على الرمال أمامى . ولقد خيل لى يومًا ، وأنا أرامق واحدة منها ، انها أطرقت قليلا

ثم رفعت رأسها الدقيق وحملقت فى وجهى بعينين خلتهما عينى كاهن مسحور ، وقالت لى بصوت أجش يفيض عطفاً ومرثية « مساكين أبناء آدم ! ما أشد جهلكم وأقل استغناءكم عن الكتب . أو ليس هذا الذى بيمينك كتاباً ؟ » قلت « نعم غير انى لا أقرأه لا تعلم منه بل لأنقده » فابتسمت كالساخرة وقالت « وما أشـد غروركم أيضاً ! » ثم أمالت رأسها وأغمضت احدى عينيها وسألتنى بلهجة مبطنة بالزراية « وأى كتاب تقرأ ؟ حدثنى » فقلت « هـذا كتاب وضعه من يدعى الدكتور طه حسـين فى بعض من كانوا يدعون أبا نواس وبشارا والحسين بن الضحاك وكلهم ، فيما أرى من هيئتك ، مغمور خامل الذكر لم ينتشر به الصوت الى عالمك ! » فدارت حول نفسهـا من فرط الضجر دورتين أو ثلاثاً ثم لفت ذيلها حتى أدنته من رأسها ولبثت هنيهة تتأمل نقوشه الخفية السر ، ثم التفتت الىّ وقالت « وما دكتورك هذا ؟ » قلت « استاذ فى الجامعة يدرس الادب والتاريخ او كليهما أو لا أدرى ماذا ! » فبدا عليهـا الاهتمام وتركت ذيلها يعود فيمتد خلفها على مهل ، وقالت « أدب ؟ ؟ وماذا كانت تخسر الدنيا لو لم يظهر فيها ادباؤكم هؤلاء ؟ بل لو لم تخلقوا فيها يا ابناء آدم ؟ أكانت تكف الارض عن الدوران ؟ ام كانت تستوحش خلوها منكم رائحين غادين فوق ظهرها ومن جثثكم المرمة فى جوفها ؟ ودكتورك هذا الذى يدرس فى الجامعة هل يستمع اليه احد » فقهقهتُ ، فغيظت وابتدرتني بهذا التعنيف « ماذا يضحكك يا هذا ؟ » فقلت « معذرة سيدتى ان كنت

اسأت الادب ! نعم يذهب اليه الظماء الى المعرفة ليكرعوا من معين علمه وادبه . ولا نكران انه ليس سوى انسان ، لا سحلية ، ولكنه يعرف بعض الشيء . . . » فقاطعتني بقولها « اجبني ماذا تخسر الدنيا او تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل ماعندكم من الكتب ؟ » فحز في نفسي هذا التحقير الذي تلج فيه ونهضت عن كرسي وقلت « اني احتج يا سيدتي على هذه اللهجة واؤكد لك . . . »

* * *

« اتكلم نفسك ؟ »

فالتفت مذعوراً الى مصدر الصوت فاذا قريب لي ينظر الى قلقاً وقد زوى ما بين عينيه ! فعدت الى كرسي وعالجت نفسي حتى ثابت الى ثم شرعت اطمئنه ولكن هيهات . . . !!

* * *

وقد كففت بعد ذلك عن محادثة السحالي العالمة واعتضت منها محادثة القراء . . . !! غير ان اذني ما انفكت تطن بقولها « ماذا تخسر الدنيا او تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل كل ما عندكم من الكتب ؟ » واني لاردد سؤالها هذا الآن واعيده على سمعي و يؤلمني و يكوي غروري الجنسي وكبريائي النوعي ان يكون الجواب سلباً قاطعاً ونفياً جازماً ، اي لاشيء ! فأما الدنيا فلا تخسر شيئاً على التحقيق . واما الناس فهبهم كأجهل ما كانوا او كأكمل ما يمكن ان يكونوا علماً ، فما ارى هذا يقدم او ذاك يؤخر . اليس الفناء الشامل هو المآل

على كل حال ؟ أجيال تمضى وأخرى تأتى ، كالخيالات التى تتراءى للحالم، حتى اذا استيقظ المرء اختفت ! كذلك الطبيعة تحلم بنا الآن ثم فى الصباح يخلو رأسها من اشباحنا ! ! ولعن الله السحالى فقد سودت بسؤالها عيشى حتى لقد صرت كما اقول :

أرى رونقَ الحسناء فى ميعة الصبا   فيُوضع بى شؤمُ الخيال ويعنق
ويُشهدنيها فى التراب مرمةً   وقد غالها غولُ الحمام الموفق !

***

ونطبق سؤال السحلية على كتاب الدكتور ونسأل نحن بدورنا : هل فيه من جديد ؟ هل زادت معارفنا به قليلا أو كثيراً؟ أكنا نكون أجهل مما نحن الآن لو لم يكتبه ! واذكر ان الأدب العربى ليس إلا بعض الأدب العالمى ، وان الدكتور لم يتناول فى كتابه سوى جانب واحد من فترة من عصر من عصور الأدب العربى . والجواب على هذه الاسئلة التى أوحت بها الى السحلية اللعينة ، نعم ولا . وأعنى بذلك ان الدكتور لم يزدنا علماً بالعصر العباسى ولم يضف الى ما نعرفه عنه جديداً ، فلو لم يكتب هذه المقالات لما فاتنا شىء يذكر من هذه الناحية . ولكن هذه المقالات كشفت عن جانب من جوانب نفسه هو ، لم يكن يتأتى لنا العلم به والاطلاع عليه لو فقدنا هذه المقالات . وهذا هو الذى ربحناه . والواقع اننا جميعاً نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونكشف لهم عن دخائلها حين نكتب مؤرخين أو

مترجمين أو متفلسفين أو ناقدين أو غير ذلك . واحسبنى لم اعد الحقيقةَ حين قلت — والشاهد فى البيت الخامس :

يمل الفتى طولَ الحياة ولا يُرى
على الموت إلا ساخطًا جدَّ واجد
ويطلب ، اما مات ، أن ينصبوا له
معــالم تستجدى دموع الخرائد
وتُبدى جراحاتِ الردى وكلومَه
وتستمنح الأحياء ذكــر البوائد
وينسج بردَ الشعر مسهرُ جفنه
ليسبى حريم الذكر حر القصائد
بلى ، ذاك دأب الناس ، كلٌّ بنفسه
يعرفنا ، من صادر بعد وارد !
ويدنهم حتى تجف حياتنــا
وتخلع ديباج الربيع المعــاود
ويسكن نبض الارض مثل قطينها
وتعلق اسباب الردى بالفراقد !

ولا يحسب أحد ان من الخسارة ان يعرفنا المرء بنفسه ولا يعرفنا بسواه . كلا ! فهذا مكسب كبير وربح طائل .



بسم الله أبتدىء وعليه اتوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز علىّ أن انازله واقارعه ، فانى أنطوى له — او صرت على الأصح أنطوى له — على الحب والاحترام . وليتنى ما عرفته ولا خالطته ! اذن لبقيت يدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ،أو لا تضيره وتوهى عظامها، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالى الى صاحب الكتاب أو يبرز لى وجهه من كل صفحة فيه ، كأنما ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعـه الى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر : هذا ما رضيت لكم ! وما هو بسفر او كتاب .« كما أتصور السفر والكتاب » وانما هى مباحث متفرقة « لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم » وبالغ فى هذا الضرب من

التواضع المقلوب، فأعلن الى الناس انه لم يعن بهذه المباحث «العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً» وانه يعلم « انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية والنظر » كأنما أراد أن يقول : لستم أهلا للعناية وان فى وسعى ان اؤلف خيراً من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة وهم – فلا تنس ! – جمهور القراء فى مصر ؟ كلا يا سيدى : « لم يكن بد من ان يتجنب (الدكتور) التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » ! ولكم وددت انا — انا المازنى — حين قرأت هذه المقدمة التي صدر بها الدكتور كتابه ، وقبل ان يصل حائك الاقدار ما بين اسبابي واسبابه ، ان اعلمه احترام القراء ! ولكنى خالطته فأحببته مع الأسف ! وانى لأتمرد احياناً على هذه العلاقة التي توثقت عراها بيننا، ويتقمصني عفريت النقد الذى لا يحابى الاصدقاء ولا يجامل الاوداء ، فارفع بالفأس كلتا يدى واشب عن الأرض، واهم بالضربة تفلق اليافوخ، فيطالعنى وجهه الساكن وجبينه المشرق ؛ وهو جالس الىّ يحادثنى ويقاسمنى ما اعانيه من المضض ويحمل عني شر شطريه، فتهى قبضتي وتفلت الفأس، وتهوى ذراعاى الى جانبي وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى اقول « خسارة ! نعم من الخسارة ان احطم هذا الرأس ! فان فى الجبين لالتماعاً وفى العظام قوة، وفى التركيب متانة — وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتنى كنت مصوراً ! اذن لأنطقت هذا

الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه ؟ » وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أراني امسح له جبينه وألاطفه وأربته ! وانى لأنقم من نفسي هذا ولكن ما حيلتي ؟ لست أرى لى خياراً : هذه هى الأسلحة ملقاة امامى . تتخطى يدى من بينها كل درع مسرّدة تتكسر عليها النصال ولا تنتقى إلا درعاً من الكتان لا تقى ولا تغنى ! وتدع المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبه . لا بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح !

وما أظن بالقارىء الا أنه يقول وهو يتلو هذه السطور . وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور ؟ ألم تصدّر « حصاد هشيمك » بكلمة قال كل من قرأها انها زراية على القراء وتضاحك بهم ؟ وجوابي كلا بالخط الثلث ! و براءة الى الله من هذا الوهم الذى ركب بعض الناس ! وهل من الزراية والتهكم أن أقول ان هذا أقصى ما وسعه جهدى فان رضى عنه القراء فبها ولله الحمد والا فما لا يصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟ وفرق ولا شك بين أن أصارح القراء بأن هذا كل ما فى الطوق و بين أن أزعمنى قادراً على خير منه ! فأنا كما ترى أصدق تواضعاً من الدكتور : هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلا لان يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » و ينشر لهم كتاباً « شديد النقص محتاجاً الى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر فى هؤلاء القراء الذكاء والفطنة

فأسبقهم الى الحكم على كتابى على حد قول القائل بيدى لا بيد عمر!

* * *

ولم يكذب الدكتور حين قال فى هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق على لنفسى وللادب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأنى ما كتبت منه (كذا) فصلا الا وأنا اعلم انه شديد النقص« محتاج» الى استئناف العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق ذلك بأن الايام كانت تحول دائمًا بينه و بين ما كان يريد « من تجديد العناية واستئناف النظر » وقد احسنت الايام بما حالت دون مرامه ، ولو انها اتاحت له ان ينقح ما يكتب و يتعقبه بالاصلاح ، لما تركت لنا معاشر النقاد من عمل نبيض به وجوهنا ونسوغ به طول السنتنا . فهل يسمح لنا صديقنا ان ننوب نحن عنه فى تجديد العناية واستئناف النظر ؟؟ و يسوءنا اننا لا نحب ان نحاكى اسلو به ونضرب على قالبه فى ارسال الكلام . وليس ذلك لان اسلو به الكتابى شاق يتعذر تقليده ، بل لان لنا اسلو بنا الخاص ومن فضل الله علينا ان ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر أسلوبه ، مامعناه انه لا يطمع من الشهرة فى أكثر مما وفق اليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به و يحتذون مثاله فى طريقة الآداء وفى تأليف الكلام ، وعندى ان الاساليب التى يسهل محاكاتها هى أخلى الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التى يختلف

بها كاتبٌ عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هى التى لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها . وتقريباً لذلك من أذهان القراء نقول لهم أن المتنبى مثلاً ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون أن يحتاج القارىء أو السامع — اذا كان قد حصّل شيئاً من الادب — الى النص على ان هذا البيت أو الابيات للمتنبى . وما من مطلع على الآداب الغربية يعييه أن يفطن إلى أسلوب كارليل الانجليزى مثلا ولو سيق غفلاً من كل نسبة . والآن فلنسأل : من الذى استطاع أن يقلد المتنبي أو كارليل ؟ اجمع أدباء الدنيا وشعراءها قاطبة وكلفهم ان ينظموا لك قصيدة على غرار المتنبي او يكتبوا فصلا على مثال كارليل يعجزوا جميعاً ويبوءوا بالفشل ! ذلك لان الاسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة وطريقته فى تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات اوكدَ واعمق ، كانت المحاكاة اشق والاخفاق فيها اقرب ، فهى لا تسهل الا حيث يكون الاسلوب خالياً من الخصائص التى ترجع فى مرد امرها الى النفس وما رُكبت عليه وانفردت به . واليك مثالا من عالم الموسيقى : ونعني به هذه الاغانى الشائعة على الالسن والتى يسمونها « الطقاطيق » : يوقعها الرجال والنساء والغلمان والاطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتون الا من حيث حلاوة الصوت وصلاحه للغناء . ومعلوم ان الذين وضعوا هذه الالحان

وصنعوا فيها هـــذه الاصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون اصواتاً مثلها فى كلام غير كلامها ، اى يقلدونها ولا يجدون فى ذلك عسراً ، اما الادوار الكبرى والقطع التى هى ادخل فى باب الفن من الطقاطيق ، والتى يشتهر بها واضعوها ولا تُذكر فى الاغلب والاعم ، الامقرونة – على الاقل فى الذهن – بأسماء اصحابها ، تقول اما هذه فما اقل مقلديهـــا بل حفاظها ! وانت قد تستطيع ان تصنع بركة او بحيرة تسرع فيها على الزوارق ، وتأتى اليها بشتى الاسماك ، وتجعل لحوافيها صخوراً ، وتنثر على سيفها الحصى ، وتفرش الارض على مستدارها بالرمال ، ولكن ايدخل فى مقدورك ان تحفر لنفسك فيماشئت من ارض الله الفضاء بحراً اعظم طامى الموج ، متدافع الاواذى ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذى فى السماء ؟؟

فليس من دواعى الفخر ان يكثر مقلدوك وان يكونوا موفقين فى الحكاية . ولعمرى ماذا يبقى من المرء اذا كان يكتب على أسلوب اذا رأيت تقليده حسبته الأصل ؟ ألا يكون الانسان فى هذه الحالة عبارة عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك انه يكون انساناً عادياً من الأوساط ، امثاله كثيرون ، إذ كان لا ينفرد بشىء يرتفع به عن مستواهم

ومن حسن حظ الدكتور ان له مقلدين ولكنهم لا يوفقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتذائه ، لأن اسلوبه ليس خالياً من الخصائص وان تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه .

وأعرف اناساً يخلطون بين كلامه وكلام سواه غير أن هذا مرجعه الى ضعف التمييز وعدم التفطن الى الخصائص الدقيقة التى لا تأخذها العين أول ما تأخذ

***

لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ولـكن الدكتور الذى أثار نقعها بلا مسوغ يبدىء فيها ويعيد ، ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى اتقان القول واجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً وقسمت الادباء على اختلاف فنونهم الأدبيـــة أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط اولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفيد من خلاصـــة ما ترك القدماء ويضيف اليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف »

وهو كما ترى — أو فيما أرى أنا — كلام يحتـــاج الى ايضاح فلنستزد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً

على الأدب وحده . . . لأن الحيـاة الانسانية تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى ، ان لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهى أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا وبأن حياتنا الآن ، ان اشبهت حياتنا امس من وجه أو وجهين ، فهى تغايرها من وجوه .

« واذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة اليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة اليه ، مترددون فى ميولنا واهوائنا وآرائنا فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون الا ابن أمسه ، والا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التى لا نعرف لها أولاً ولا آخراً ، وهى سلسلة الحيـاة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر الا فى شىء واحد ، هو ان يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، الى الامام ، دون أن يقف فيفكر فى حاضره ، أو أن يلتفت فينظر الى ماضيه . ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القـديم المسرفين فى نصره ، وأشياع الجديد الغلاة فى

التشيع له . يشتد هذا الخلاف و يعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء ، وانما هى محققة لهذين الاصلين تحقيقاً طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما و يظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الامة والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم و بين الحديث » اھ

والآن أفهمت ؟ كلا ؟ ؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا الى أعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على أن أذكرنا تلك السراديب الرومانية التى تذهب فى كل اتجاه والتى احتفرتها أيدى الناس بحثاً عما لا ندرى ! وخير لنا أن ندع الدكتور وشأنه فى هذه السراديب ولنرفض أن ننحدر وراءه الى هذا الظلام الدامس الذى أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة و بين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه « البقاء والاستحالة » نسأل الله له السلامة !

المسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعضُ المعاصرين المثلَ الأعلى ، وقد يكون كذلك أو لا يكون ، و يتوهمون انهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وانهم اذا استعاروا أجنحة النسور حلقوا مثلها فى سماء الحياة ، وان فى وسعهم أن يوفقوا بين روح

العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلي ومثل الدكتور لا يعنّون أنفسهم بهذا التوفيق ولا يتحرون الا شيئاً واحداً هو الابانة عما في نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يُعنى بأن يدرس براعات الادب القديم ، وفريق لا يكترث لذلك . فالأمر كما ترى لا يحتاج الى كل هذه الفلسفة التي حصب الدكتور بها وجوهنا فى فاتحة كتابه .

وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول ان مقلدى القدماء لا يقلدونهم ولا ينسجون إلا على منوال نفوسهم . وان امكان النجاح فى هذه المحاكاة مستحيل ، وانهم حين يكتبون لا يحتذون مثالاً قديماً ، وانهم واهمون إذ يظنون انهم يطبعون على غرار السلف . وان السبب بسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرء أساليبَ تفكيرعفى عليها الزمن ، وأن ينظر الى الحياة من وجهة غيّرها كر الايام ، وأن يتخيل جواً لا عهد له به ، وبيئةً ووراثة انقطع فعلهما فى هذه الايام . ولو أن رجلاً من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر الى الماضي ويجيء بكلام لا يختلف فى شيء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم لكان فى نظرى أعظم من ذلك العربى ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذى يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها : ذلك انى أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الارضية فى هذا العصر رجلاً يكتب كالعرب . وهذا

صادق افندى الرافعى زعيم من نسميهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أى عربى كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وانما هو مقام محاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الاحمر » لم أتخيرها ولكن وقعت عينى عليها اتفاقاً ، ويجدر بى قبل أن أنقلها أن أعلن انى لم أفهمها ! وهى قوله « قد يتغير الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت الأول و يا أنت الثانى ، ولكنى عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ؟ ! ؟ ! »

ولست آتى بجديد حين أقول ان من المستحيل ان يرجع أحد بنفسه الى عهد العرب لأن الحياة لا سبيل فيها الى هذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك ان واحداً يركب عقله و يتعثر به فى الطريق الذى تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجليه أو مطية أخرى و يسير فى طليعة الركب أو بين سواده

وان الكتاب ليحسنون جداً الى الأدب اذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التى أثاروها حول القديم والجديد فان الزمن ماض لا يثقل رِجلاً ، فمن سايره فهو معه ، ومن شاء أن يتكلف المحال فسينقطع عن القافلة وامره الى الله

قليل من الفلسفة ! ؟

نستأذن القراء الكرام فى قليل من الفلسفة . ولهم علينا عهد الله ألا نعود الى ذلك . لا لان الفلسفة مما يعسر عليهم « هضمها » ولا لان « الصحف السيارة لا تصلح لمثل هــذا » كما يزعم صديقنا الدكتور طه حسين فى مقدمة كتابه الذى ملته لكثرة ما ذكرته ، بل لأنى لا أحسن هــذا الضرب من الكلام . وما لنا لا نتفلسف وقد تفلسف الدكتور ؟ أترى ما تيسر له يعجزنا ؟ ألا يدخل فى طوقنا كما دخل فى طوقه أن نسوق كلاماً يستحى القارىء أن يقول لا أفهمه ؟ وما دام فى الدنيا من يشق عليهم أن يعترفوا بالعجز عن فهم ما يزعمه أصحابه فلسفة فان الدنيا بخير يا سيدى ولنتفلسف فيها نحن أيضاً ! وأحر بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى اذا لم يفهموها كما هو المنتظر! ذلك انها دفاع عنهم ! فما أطيبنا والله ! فى سبيلهم نتجشم الغوصَ فى درك اللجة الفلسفية ، ومن أجلهم نقامس حيتانها المخوفة ونتعرض لان يُطبق علينا أحدُها فكه الرهيبَ ويبتلعنا بكل ما ننطوى عليــه من قدرة وحذلقة ، أو لأن نغرق

ونرسب فى النهاية الى جانب الدر الذى لا نعود به ، وبين الحصى والطين والحجارة التى نرتطم فيها . ولن ينفعنا القراء حينئذ وقانا الله شر خدمتهم !

ويغرينى باعتساف الفلسفة ومحاولة الركض بين وعورها ما أشرت اليه فى مقالى السابق وأسلفت عليه القول من زراية دكتورنا على القراء واعتباره اياهم غير أهل لان يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » لا ياصديقى الدكتور. عفوك ! لو وسعك هذا الذى تقول انك تجنبه لما أحجمت عنه ولا صدك الاشفاقُ على رؤوس القراء والترفقُ بأدمغتهم . ولو كان فى جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولاحتلت وتلطفت وألححت فى عرضه ولرفعته قبلنا من كل ناحية

وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فاننا جميعاً مع الاسف هذا الدكتور ، وما منا الا من يطيب له أن يدعى انه قادر على خير مما يصنع ، وكما أن الفقير يتظاهر بالثراء ويحب أن يوهم الناس انه أغنى مما يدل عليه ملبسه ومسكنه وطعامه وسائر ما عسى أن يبدو لهم منه ، ويستنكف أن يعترف بخصاصته ورقة حاله ، كذلك نحن معاشر الكتاب : يزعم كل معدم منا أو من لا يملك الا فكرة واحدة انه غنى العقل ، وربما أغرق فى الدعوى فقال انه مليونير ! والناس فى العادة لا يخفى عليهم الغنى المادى ولا يعييهم أن يقفوا

على حقيقة الدعوى فيه ونصيبها من الصحة ، ومن هنا ترى المفلسين لا يزالون يكبحون جماح دعواهم ليجعلوها أقرب الي العقل وأحرى بالتصديق ، اذ كان لا يقبل ممن يمشى فى أسمال بالية و يسكن كوخاً حقيراً ان يقول ان المال عنــدى قناطير مقنطرة ، ولكنه لا يدفع السامعين الى الانكار والجزم بكذبه اذا ادعى انه ادخر مائة جنيه . فان مائه جنيه لا تنافى كل المنافاة ما عليه ظاهرُ حاله . أما غنى العقل أو الفكر فما الحيلة فى دعواه ؟ ما طريقــة حسابه والحــكم عليه ؟ انه غنى يدعيه لا الكتاب والشعراء والعلماء وحدهم — ولو اقتصر الامر عليهم لهان الخطب وسهل الوزن والتقدير — بل كل من له راس بين كتفيه . وهبك عرفت مافى رأسه وأحصيته فقد بقي أن تعرف أهو من ماله الخاص أم مما اقترضه من سواه أو ممــا يسترييه؟ ؟ فمجال الدعوى كما ترى واسع رحيب ، والحدود هنــا غير قائمة ، وكل ذى دعوى يرى من الاوفق له أن يغض عن دعاوى سواه ليغضوا عنه وليتبادلوا الموافقة و يتقارضوا التأييد !

وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء . نكتب لهم طلباً لاعجابهم والتماساً لثنائهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت بينهم وتأبى لنا طباعنا المنكرة الا أن نجمــل الاستخفاف بهم وسيلتنا الى اكتساب ذلك : يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فاذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق وانهــا لا تحتمل الا الخسيس الرخيص من الاصناف ، و يُصفى ثان و يغدو كالدجاجة انقطع بيضها فيكبر عليه

أن يقول فرغ رأسي ، ويروح يقول ان الارض غير صالحة للبذر ومن الحمق أن أحاول زرع أرض ظهرها صفوان ، وقد علم ان العيب عيبه لا عيب التربة ، وان مالا وجود له الا فى رأسه – ان كان فيه شيء – هو فى حكم المعدوم ، وانه لا وجود لخاطر على الحقيقة الااذا ترجمه الجمهور عن صاحبه ، ويجيء ثالث بكلام لا يكتبه بالقلم كما يكتب الناس ، بل بالبرجل كما يقول صديقنا الاستاذ العقاد فى وصف واحد من هؤلاء ، فاذا قلت له انك تكتب مالا يفهم استشاط وسب الشمس والقمر وقال ان منزلتى أن اكتب ومنزلتكم أن لا تفهموا ، اذ كنت أختلف عنكم فى الحس وفى التفكير وفى الحكم على الاشياء ، وأصدر فيما اكتب عن الالهام الذى لاينزل على العامة وأشباهها ! وهكذا . .

والآن فلنتفلسف ! وفلسفتنا هذه جديدة الا أنها مستمدة من سوانا ، كالحياة نفسها ، والحياة ابداً جديدة غيران حاضرها متسلسل من ماضيها ومرتبط به . ويسرنى ان اعترف فى مستهل فلسفتى التى ارجو ان اوفق الى بسطها وايضاحها انى مدين على الاكثر لصديقي الاستاذ العقاد وان ما كتبه فى « فلسفة الجمال والحب » وذهب اليه فى هذا البحث من ان « الجمال هو الحرية » كان فتحاً مبيناً فى عالم الفلسفة وان قوله فى مقدمة كتابه[1] « ان الكون كله والحياة (وهى اعم من الكون فى نظرى) والفن ومناظر الارض والسماء – كل اولئك مظهر للتآلف اوللتنازع بين الحرية والضرورة ، او بين الجمال

(١) مطالعات فى الكتب والحياة

والمنفعة ، او بين الروح والمادة ، او بين افراح الفن واوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمــادة صفاء الروح و يسبر بالقيود أغوار الحرية ؟ وهذا الائتلاف هو دستور الفن الالهى المحيط بكل شىء وهو فلسفة الفلسفات فى هذا الوجود »
أقول أن قوله هذا على الخصوص هو الذى فتح لى الابواب المغلقة التى طالما أوهيت رأسى بنطحها .

نعم هذا هو دستور الفن الالهى : قوى مطلقة تحكمها وتنظمها قوانين ، و بغير ذلك لا نستطيع ، ولو فاضت أرواحنا من شدة التفكير ، أن نعلل ما نلمحه من مظاهر التناقض فى الحياة ، وهذه الفقرة بعينها من مقدمة العقاد التى أعلن الدكتور طه انه لم يفهمها ، هى مفتاحى الذى سأديره فيما سأتناوله الآن . واذ كان لكل شيخ طريقتــه الخاصة به فسأبدأ بحثى من حيث اريد أنا لا من هذه الرباوة العالية التى أشرف العقاد من قمتها على الحياة . وفى مرجوى أن آخــذ بيد القارىء وأن أصعد معه درجة بعد درجة حتى نبلغ جميعًا هذه القمة

بأيهما يحس الآدمى أولاً : بنفسه أم بغيره ؟ أظن أنه لا شك فى أن أول ما يحس به المرء بعد أن يأتى الى هذه الدنيــا و يشعر بشىء فيها ، هو نفسه . وفى وسع كل امرىء أن يتحقق من ذلك و يقطع الشك فيه باليقين ، وذلك بأن يلاحظ طفله لأول عهده بالحياة ، فان كل طفل يظل زمنًا غافلاً عن كل ما يحيط به من الاشياء

والناس ، حتى أبويه بل حتى امه أو ظئره . وظاهر ان احساسه بوجود غيره لا يكون إلا على الأيام ، أى شيئاً فشيئاً ، ولا ينمو ويقوى إلا تبعاً لنمو ادراكه لما بينه وبين ما حوله من الناس والأشياء من الصلات . ومعنى ذلك أن الاحساس بالنفس أو بالفردية سابق للاحساس بالغير وناشىء قبله . ولك أن تقول بعبارة أخرى أن الغرائز الاجتماعية مكتسبة الى حد كبير . وليست كذلك الغريزة الفردية . أضف الى ذلك أن الفرد وجد قبل النوع

فالفردية هى السمة الأولى التى تبديها الحياة أو تبدو معها . وثم سمة أخرى لاخفاء بها هى أنه لا سبيل الى الخلط بين اثنين وان التطابق التام حتى بين التوأمين لا وجود له ، و بعبارة أخرى ، ليس فى الحياة فردان يمكن أن تصفهما بأنهما مترادفان كما تصف بعض الالفاظ تساهلاً فى التعبير . نريد أن نقول أنه لا آخر للتنوع فى صور الحياة . أى أن الحياة مطلقة الحرية فى انتقاء الصور التى تبدو فيها وتتشكل بها وان سبيل الحياة أن تخرج أشكالاً متنوعة وانها لا تتقيد في ذلك بقالب معين ولا تلتزم فيه ما نلتزم نحن مثلاً فى الشعر أحياناً من الوزن أو القافية . ولا يتعجل القارىء فيعترض فما نريد أن نذهب الى أبعد من أن « الاصل » هو الحرية المطلقة فى اختيار الصور والاشكال . ولو أن هذا لم يكن كذلك أى لو أن الحياة مقيدة بصورة أو صور معينة لا تخرج عنها لكان تعاقب الاحياء تكراراً سخيفاً لا معنى له . وتصور أن الناس مثلاً يخلقون

على طراز واحد لا يتغير ويصبون فى قالب لا يتعدد ! ألا يكون كل جيل فى هذه الحالة صورة معادة لكل جيل سبقه ؟؟ نعم بلا شك ! وماذا يكون معنى هذا التكرار المستمر ؟ لا معنى على الاطلاق ! وأحر بالحياة أن تكون إذن مسرفة سفيهة مملة . وما أحقها حينئذ بأن يحجر عليها من يستطيع ! ؟

كلا ! ليس فى الحياة اسراف ولا املال لأنه لا تكرار هناك ولا اعادة . وكل فرد يخرج من يدى الحياة يكون الأصل فيه أنه نمط قائم بذاته مختلف عما عداه وحريتها فى ذلك مطلقة لا نهاية لها ولا حد . ولكن — نعم « ولكن » — لا بد من القيد الذى تنتظم به الحرية وتصان من التبدد والانحلال المفضيين الى العدم : وهذا القيد هو ان الناس لا يخلقون فى هذه الايام كما خلق أولهم من الطين مباشرة أو من المواد الأولية . وانما يأتى الانسان من انسان مثله وتخرج صورة الحياة الجديدة من صورة سابقة أى من أبوين . وهذا الجهاز الذى تمر به مادة المخلوق الجديد يطبعه بطابعه ويترك اثره فيه فيجىء الجديد مشابهاً للقديم وإذ كان هذا هكذا فكل فرد يأتى الى دنيانا يكون نتيجة عاملين : حرية الاختيار التى تتوخاها الحياة فى صورها ، والوراثة الناتجة من التناسل والتى ترمى الى الاحتفاظ بالصورة القديمة والى اعادتها ، وهذا هو علة الاختلاف من ناحية والتشابه من ناحية أخرى . والمسألة كما ترى بسيطة سهلة المساغ وليس فيها تعويض بل لا جديد فيها فى الحقيقة ولا فلسفة !

وعسى من يسأل : ولكن ما علاقة هذا بالدكتور طه حسين وبما افتتحت به هذا المقال ؟ ؟ وجوابنا ان العلاقة وثيقة والصلة متينة . ذلك أولاً أن الدكتور قد شاء أن يتفلسف في كتابه فلم يبق لغيره عذر اذا لم يتفلسف ؟ ؟ وثانياً اننا أردنا ان نعالل هذه الظاهرة العجيبة : ونعني بها تزلف المرء للجمهور وتظاهره بالاستخفاف به وبرأيه واستصغاره لقدره . فأردنا أن نقول بلسان الفلسفة ان من الدلائل القوية على ان الاصل ان الحياة مطلقة الحرية فى أخذ صورها وتنويعها ان كل واحد منا يحب ان يرتفع عن المستوى العام بالحق أو بالباطل لأن التميز دليل على وفرة الحيوية واربائها فى المرء على النصيب العادى ، وهذا التميز هو الدليل من جهة أخرى على تغلب الفردية أى قانون الحياة على الوراثة التي تحاول كما قلنا وكما تعلم أن تجعل الناس صوراً متطابقة . ومن الذى يرضى أن يكون صورة مكررة من سواه لا تختلف عنه فى كثير أو قليل ؟ من الذى لا يحب أن يسمو فى نظر نفسه أو فى نظر سواه ، وهو المهم ، عن هذا المستوى العام ، وانها لرغبة تنبىء عن احترام الحياة وتكشف عما بين قانونها والوراثة من التنازع . فاذا رأيتنى أو رأيت سواى يتسامى عن منزلة الجماهير فاعذره فقد عرفت الداعى الى ذلك والباعث عليه واعلم ان « الجمهور » لفظ مرن يسعك فى كل لحظة أن تضيقه وتوسعه وأن تجعله كلما شئت يشمل كل الناس إلا « أنت وأنا »



من الأوهام الشائعة أن الناس مولعون بكل جديد ، ومن الأمور التي يشكوها من يتنكبون الطرق المعبدة أن الناس لايبادرون الى متابعتهم حيثما يذهبون . فأى القولين أصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد أشرنا من قبل الى أن سبيل الطبيعة أن تصل الى غايتها من أهون سبيل ، أى انها تتوخى أسهل السبل وأقلها كلفة وأعظمها اقتصاداً . ولا بأس من أن نعود الى ذلك بشيء من البيان يجلو غامضه ويحل مشكله . ولنضرب مثلين أحدهما من الانسان وثانيهما من غيره ولنبدأ بثانيهما فانه أخف وأيسر ايضاحاً . تسقط الأمطار على الجبال أو سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلاً . فهل علم أحد أن هذا الماء الجارى آثر ، مذ سال على وجه الأرض أن يخترق الصخور أو يعلوها وزهد فى اللين الدمث الذى لا يشق عليه أن ينساب فيه ؟ كلا ؟ ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو اذا

صادفته أرض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها . واذا اعترضته وعور ذاهبة فى الجو لم يتجشم أن يعلوها ويطم فوقها اذا وجد مجازاً له عن يمينها أو شمالها . ودع هذا وتأمل الانسان وسل نفسك ما السر فى أن المرء يصعب عليه أن يغير ما كون لنفسه من العادات ؟ أليس لأنها لاتتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك أن تكون قد ألفت أن تسلك طريقاً معيناً بين بيتك وبين المكان الذى تزاول فيه عملك اليومى . فأنت كلما ذرت الشمس تكرر ما عملته فى الصباح الماضى وتزايل بيتك وتقودك رجلاك وأنت لاتشعر الى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك عليهما فيه كعادتهما فى كل يوم . ومن المؤكد ان سلوك هذا الطريق لايكلفك تنبهاً خاصاً أو تفكيراً وانك حين تمشى فيه وتمر بما تمر به كل يوم لايلفتك فيه شىء . شأنك فى ذلك من بعض الوجوه كشأنك حين تأكل : تمتد يدك الى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع الى فمك ومنه تهوى الى جوفك . وليس ليدك عين ترى بها مكان فمك من وجهك ، ولسنا نعلم أن يد المرء تخطىء وترتفع الى الأنف . فقد اعتادت أن تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك فى الطريق المألوف وتذهبان بك فى منعطفاته دون أن تفكر أنت فى شىء . ولكنك حين تسلك طريقاً آخر غير الذى ألفته تلفى نفسك تستعمل عينيك وتجيلهما فيما هو امامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر فى طوله أو

قصره بالقياس الى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الأشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقايسات كثيرة ويجرك هذا الى مواضيع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو اكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئاً منه حين تأخذ فى طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التى ألفت أن تتناوله بها

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن أن تخلق الناس فى أيامنا هذه كما خلقت أولهم وأسبقهم فى الوجود ، أعنى من طينة الأرض التى صيغ منها المخلوق الأول — كائناً ما كان هذا المخلوق — ولست أعنى بطينة الأرض وحلها ، وانما أعنى المواد الطبيعية الأولية كما هو ظاهر بالبداهة . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه إلا الله سبحانه وتعالى ، عن اخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق وصرنا نخرج الى الدنيا بطريقة التوالد إذ كان خلق الانسان بالتوالد أسهل من اعادة كل أدوار التطور الماضية كلما اريد خلق انسان ولأن التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الأدوار و بسرعة فلا حاجة لتكاف المرور بها على نحو مطابق للأصل . واذ كان هذا الكلام يحتاج الى تفسير فليعلم القارىء — اذا كان ممن يجهل ذلك — ان المرء يعيد على صورة مصغرة مختزلة ما مرت به الانسانية من أدوار النشوء ، وللقارىء أن يصدق هذا أو لا يصدقه ، فان كانت الاولى فله منا الشكر الجزيل

على الثقة بنا والاطمئنان الينا ، وان كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا ولن يمنع انكاره ان الأمر كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا أضيق من أن نتجشم اثبات ذلك له على حين يستطيع هو أن يريحنا بأن يقرأه فى أكثر من كتاب واحد

والآن فلننتقل الى شيء آخر ، وليحضر القارىء الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التى يسمونها القانون . وهى آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها أن يعيد اصلاح أوتارها كلما أراد أن ينتقل الى « نغمة » مغايرة للنغمة الاولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج الى اعداد أوتاره وتهيئتها من جديد اذا كان الانتقال بسيطاً وفى موضع واحد أو مواضع قليلة من الصوت الذى يوقعه ولم يكن عاماً شاملاً . ونحسب هذا معروفاً مفهوماً . وما منا الا من رأى ذلك وشهده بعينيه . فصاحب القانون لا يغير شد الاوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد اذا كان الخروج عما هيأ له أوتاره جزئياً غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئى عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدمه ولا يكلفه أو يكلف الأوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف أو التوقيع كأن لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو أشبه بقديمهم الذى ساروا عليه وألفوه ، لا يحسون أن جديداً طرأ أو انهم يحتاجون أن يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارىء

واستقباله . ولا يشعرون بدافع الى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الامثلة كتابات المنفلوطى رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما فى الأمر أنه جعل لكلامه طلاء أو لونًا لا يحيله عن أصله ولا يخرجه عن تياره . وشبيه بذلك أن تستحدث ألوانًا جديدة فى الملابس دون أن تغير الشهرة (المودة) فى تفصيلها — فلا يصدم الناس منها شيء كبير ولا يحملهم على التردد فى قبولها والاقبال عليها أنها مخالفة لما يجرى عليه العرف . ولكن لنفرض أن حائكاً سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا الى خمسين أو ستين سنة ليحيي طرازاً كان شائعًا يومئذ أو كأن يستحدث اسلوبًا تكون فيه الأزرار من الخلف لا من الامام أو تكون السترة أو ما يسمونه « الجاكتة » أشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا! يتحرجون فى أول الأمر وينكرونه ويظلون يتهيبونه زمنًا طويلاً أو قصيراً على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيئوا لقبوله شيئًا فشيئًا ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الايام ان كان له نصيب من الجمال أو الصلاح . وهذا هو الذى يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلاً غير التى ألف الناس أن ينهجها الكتاب ، أو حين يأتى عالم أو فيلسوف برأى يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا فى ظنك كان أهل اوربا فى القرون الوسطى يستنكرون أن يذهب أحد الى أن الارض دائرة أو انها ليست محور الوجود.

وقطب الكون أو أن الشمس لا تدور حولها بل هى التى تدور حول الشمس ؟ ؟ ماذا يعنيهم من كون الأرض كرة أو سطحاً أو هل تدور حول الشمس أم الشمس التي تدور حولها ؟ ماذا كربهم من ذلك فى حياتهم أو أفسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شيء سوى أن الرأى الجديد كان خطوة فى عكس الطريق الذى درجوا عليه كما درج آباؤهم وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لمألوفهم بمثابة القول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام والاذن للشم والعين للسمع . والناس انما يسهل عليهم الاخذ بالجديد اذا كان مقارباً لما اعتادوه وكان كأنه امتداد له ولم يكن مغايراً فى جوهره لآرائهم أو أذواقهم

وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض انه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا خمسين أو ستين سنة ليحيي طرازاً كان شائعاً يومئذ » ، وأعنى بذلك أن القديم الذى مضى زمنه وانقضى عهده يكون فى حكم الجديد وله وقعه وصدمته حين يراد احياؤه ، لأنه يكون جديداً فى نظر من لم يألفوه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة اذ كان احياء القديم يتطلب أن تتوفر الاحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التى عفى عليها الزمن وطوى صفحتها

وبعد فليس بصحيح أن الناس مولعون بكل جديد وانما الصحيح انهم يقاومونه ويتهيئون له على الايام وان جديد اليوم اذا

كان صالحاً خليق أن يصبح مألوف الغد . ومن حق الجمهور علينا أن نحمد له ذلك وأن نشكر الله عليه . اذ حقيق بالدنيا أن تنقلب بيمارستاناً ضخماً لو ان الناس فيها كانوا يبادرون الى الأخذ بكل جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحاً والاتزان فى الحياة ألزم وأجدى وأ كفل باطراد التقدم من طيش التعجل

طه ومجنون ليلى

بسم الله وما توفيق الا بالله . وبعـد أيها القراء ، فقد هدانى البحث والتقصى مع الاسف الى حقيقـة خفيت عليكم - حقيقة ان سرنى أنى وقفت اليهـا ، لقد ساءنى والله انها نسخت حلماً لذيذاً عشت به زمناً رغداً ، فليست كل حقيقة سارة ، وما كل حلم يشتهى المرء أن يفيق من أضغاثه . ولـكنه « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » قاتلهما الله والتحقيق العلمى كالجيلوتين !! لا يرحم ولا يدركه العطف على الاوهام التى يحصدها والخرافات التى يطـير رؤوسها عن أبدانها التى تتكون على الايام كجزائر المرجان .

وأوجز على خلاف عادتى فأقول : ان « صـديقى » الدكتور طه حسين الذى سمعتم به وقرأتم ما كتبته عنه ، شخص لا وجود له فى دنيانا هذه وانه من مخلوقات الخيال ليس الا . . !!

أتهزون رؤسكم انكاراً ؟ يا سبحان الله ! وهل هو أضخم شأناً أو أحق بأن يكون مخلوقاً حقيقياً من هومر الذى يذهب الكثيرون من جلة العلمـاء المحققين الى أنه اسم خرافى ؟ أو من شكسبير الذى

يزعم بعضهم انه اسم انتحله واستتر وراءه خلافه ؟ كلا ! لا محل للانكار ورفض التصديق : والقدرة الالهيــة التى تفنى الموجود لا يعجزها أن لا توجده أصـلاً . والمرء بعد أن يعود ترابا فى تراب تحت تراب كما يقول الخيام يجرى ذكره على « بعض » الالسنة ثم يقل وروده عليها يوما بعديوم حتى تطوى صحيفته ويتم محوه فكأنه ما كان . وذلك مرجوعنا جميعا باذن الله فى هذه الدنيا التى لا تتسع لنا الا فوجا فى أثر فوج. وهبوا الدكتور حقيقة مادية نلمسها ونحسها اذا شئنا فماذا يضيره أن نكر وجوده ؟ أليس الثابت على كل حال انه — بعد عمر طويل ان كان يشتهى طول العمر — سيحور صدى تتجاوب به كهوف بعض النفوس أو على الاكثر كتابا أو كتبا تتداولها الايدى ؟ نعم . وما أحسبه يمكن أن يطمع فى اكثر من هذا لانه ليس ثم ما هو اكثر من ذلك ، وهـذه كتبه بين أيدينا فماذا اذن ؟ ما حاجتنا الى صاحبهـا ؟ لماذا ينبغى أن يكون لهـا صاحب موجود ؟ ؟ ويا سيدى القارىء ان هذا الذى « يتسمى » الدكتور طه حسين ينكر فى احدى مقالاته المعزوة اليه ان شخصا اسمه مجنون ليلى دب على ظهر الأرض ويزعمـه طائفة محشودة من القصص ابتكرها اكثر من واحد . ودليـله على ذلك ان الرواة تضاربوا فى هذا المجنون وبالغوا وجاوزوا المعقول ولا أدرى ماذا صنعوا أيضا ! أفلا نستطيع نحن قياسا على هذا المنطق أن نشك فى وجود من نشاء بل ان ننكر وجوده بتاتا ؟ ؟ نعم يسعنا ذلك بلا ريب ، ومن ترى.

أحق بأن يطبق عليه هذا المنطق من صاحبه ؟؟ و يعز علينا أن نمحو من الدنيا رجلا قبـــل أن تعفى عليه الايام كما ستعفى علينا اجمعين . ولكن المثل يقول « كما تدين تدان » ولقد أسلفنا لك ان الدكتور لم يتحرج أن ينكر أن مجنون ليلى وجد فى الدنيا ولم يصده عن هذا الانكار القاسى حتى ولا العاطفة الفنية . ورحم الله ابن الرومي فقـــد كان يقول :

ولو أننى أحببتُ ميتًا ، عشقته

بحسن الذى آثرت فيه من الحسنى

ولكن الدكتور يعمد الى صورة حية فيحاول بمنطقه ان يقضى عليها و يفجعنا فيها و يسلبنا اياها و يحسب ان قصة المجنون يمكن أن تبقى لها روعتها وجمالها وأخذُها بعد ان تفقد الاصل وتخسر عنصر الوحدة فيها ، و بعد ان تصبح مرقعة كأسمال المتسولين ! فها قد قيض الله للدكتور مجنونًا آخر ينكر وجوده كما أنكر هو وجود المجنون القديم ! ! وانه لا نتصاف ! فما يضير صاحب ليلى ما يقول الدكتور فيه . فأما الدكتور فسيحتاج بعد اليوم الى كل من عنده من الشهود وما فى جعبته من الاوراق ليثبت ان لاسمه مسمى وهيهات ! !

كنت جالسًا ذات يوم مع صديقى الاستاذ العقاد فتذاكرنا حديث الاربعاء وصاحبه بمناسبة ما كتبته عنه واستطردنا الى طريقته فى البحث « والتحقيق العلمى » ثم الى سيرة مجنون ليلى فقال الاستاذ العقاد عن أى شىء يسفر البحث يا ترى لو نسجنا على منوال الدكتور فيما

كتبه عن المجنون ؟ انه لا يبقى منـه شىء كما لم يبق هو شيئاً من المجنون ، والحق اقول ان مقترح العقاد راقني وان نفسي ظلت تنازعني بعد ذلك ان أتولى امضاء هذه الفكرة فلبثت أتردد حتى لم أعد أستطيع المقاومة. وقد أقنعت نفسي بقولي لها ان العقاد لا يضيره أن أسطو على فكرة او افكار له فانه أغنى من ذلك وأنا أفقر من أن أدعها له وان كنت أردها بهذا الاعلان اليه

و بعد هذا البيان الذى لا بد منـه أقول لنفرض أن مؤرخاً فى القرن الثالث والعشرين مثـلاً تناول حياة الدكتور بمثل تمحيصه وتحقيقه العلمى فهل تكون النتيجة الا كما يأتى : —

يزعمون ان رجلاً اسمه الدكتور طه حسين عاش بمصر فى أوليات القرن العشرين وانه صاحب هـذه الكتب المختلفة التى نسبوها اليه ونحلوه اياها ولكن كل ماطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين : أحدهما أن يكون هنـاك أناس كثيرون يتسمون « طه حسين» وثانيهما أن يكون هذا اسما استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه . ذلك انه ، على ما روى ، أزهرى النشأة والازهر هـذا جامعة اسلامية كبرى يلبس طلابها الجبة والقفطان والعمامة أو ما ماثل ذلك من ثياب العامة فى ذلك الوقت مما تجـد نماذج منه فى المتاحف . فهو على هذا « شيخ » ويقولون انه كان فى صدر أيامه هذه يكتب فى صحيفة يومية اسمها « الجريدة » ولكني راجعت مجموعة هـذه « الجريدة » فى دار الكتب فألفيت أحد

أدباء ذلك العصر واسمه « عبد الرحمن شكرى » يسميه « طه افندى حسين » فى مقال له . وهو مالا سبيل الى حمله على انه خطأ أو زلة قلم لان الفرق بين الافندى والشيخ كان من الوضوح ، والاختلاف فى التعليم والنشأة والوسط والزى كان من الشدة ، بحيث لا يعقل أن يقع الخلط بينهما . فهل طهافندى حسين هو عين الشيخ طه حسين ؟؟ ولا شك أن شكرى كان يعرف المعنى « بطه افندى حسين » فقد كانت بينهما ملاحاة يدل على ذلك قصيدة نشرتها الجريدة بامضاء « طه حسين » ومطلعها

« قل لشكرى فقد غلا وتمادى   بعض ما أنت فيه يشفى الفؤادا»

وأحر بمتهاجيين أن يعرف كل منهما صاحبه وأن لا يجعله « أفنديًا » وهو شيخ . ومما هو خليق أن يضاعف الشك فى انهما شخص واحد أن الشعر لم يكن من أدوات الشيخ طه حسين وان ناشرى كتبه ومترجمى حياته لم ينسبوا اليه بيتًا واحداً .

ويعزى الى طه حسين ولا أدرى أيهما ؟ مقال بل عدة مقالات فى الجريدة يدعو فيها الى تغيير الهجاء ورسم الكلمات . فهل كان الداعى الى هذا والملح فيه الشيخ طه أو طه افندي ؟ أما الشيخ طه فكان على ما يقولون مكفوف البصر وكان فى ذلك الوقت لا يزال طالباً بالازهر ، ومن المعلوم أن طلبة الازهر كانوا من « المحافظين » ومن أشد طبقات المتعلمين استنكاراً للبدع ونفوراً من أصحابها وكثيراً ما كانوا يتجاوزون الاستهجان بالقلب أو باللفظ ويتضاربون بما

كانوا يتفكهون بأن يسموه «السـلاح الاحمر» يعنون به النعال !
ولم يرو أن الشيخ طه كان من أبطال هـذه المعارك الحمراء ولا من ضحاياها، وأخلق به ألا يكون وقد كان كما يزعمون ضريراً . فلو أنه صاحب هذه البدعة والمنادى بها لاصابه رشاش من قذائفها. زد على ذلك أنه ضرير . وما اهتمام الضرير برسم الكلمات ؟ ! ! ما له ولهذا وهو لا يعانيه ولا يكابد صعوباته ؟ ! ان الاهتمام لذلك والتحمس له أحق بأن يكونا من رجل يكابد الكتابة بنفسه لامن كفيف ما عليه الا أن يملى . وهو على كل حال خاطر أولى به أن يجرى ببال مبصر لاضرير . فالأرجح فى الاحتمال والاقرب الى المعقول أن يكون هناك شخصان اسم كل منهما «طه حسين» وأحدهما افندى مبصر يقول الشعر و يدعو الى تغيير الهجاء والثانى شيخ ضرير يكتب فى الادب

والآن من هو الدكتور طه حسين صاحب «حديث الاربعاء»؟ أهو الشيخ أم الأفندى ام هو لا هذا ولا ذاك بل شخص ثالث ؟ ؟ أما انه أحدهما فانى أقطع بنفيه . وحسبك الفرق بين أساوب هذين وأسلوب ثالثهما . وسننقل لك فقرات تريك من التباين مالا يدع مجازاً للشك فى ان الكتاب عديدون

قال الشيخ طه حسين فى كتابه ذكرى أبى العـلاء «كان أبو العلاء يحرص أشـد الحرص على أن يخفى نفسه على القارىء فى بعض رسائله ولكن شخصه كان يأبى الا الظهور . وكان يلقى بينه

و بين القارئ أستاراً صفيقــة من غريب اللفظ ، وحجباً كثيفة من ثقيل السجع ،و يقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى الا أن تخترق هذه الموانع كافة لتصل الى قلب القارئ فتترك فيه ندوباً لدغات الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالا »

وهو أسلوب لا شذوذ فيــه كما ترى . ولكن اقرأ الآن الفقرة الآتية من كلام « الدكتور » طه حسين فى نفس الموضوع والمعنى . قال « ذلك ان أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس ايثاراً للغريب وتهالكا عليه . ثم كان ابو العلاء الى هذا — فيما اعتقد أنا — يتكلف الغريب و يتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم — سواء فى ذلك العلماء وغير العلماء — عن قراءته والظهور على ما فيــه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأن أبا العــلاء كان يحس ان عصره خليق ألا يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذى نحن فيه وللعصور التى ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الادبية ان يفهمها اهل زمانه فيفسدوها و يشوهوها و يحولوا بينناو بين فهمها وكأنه انما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وارصاداً شغل بها اهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا اليــه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة فى الخلق والجماعة والدين »

ثم اقرأ للشيخ طه حسين قوله من ذكرى أبي العلاء أيضاً «من قرأ رسالة الغفران وأراد أن يفقـه معناها حق الفقه احتاج الى دقة ملاحظة ، وحذق فطنة ، وبعد نظر ، ونور بصيرة ، والى ان يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف اغراضه فاذا لم يوفق الى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من اقوم كتب الدين »

وقس هذا الى ما كتبه « الدكتور »

« أراد ابو العلاء ان يتفكه واراد ابو العلاء ان ينقد واراد ان يكفر واراد ان يؤمن ولست احتاط فى لفظ ولا اتحرج من معنى وانما اريد ان اكون حراً فيما افهم وفيما اقول فالحرية وحدها هى السبيل الى فهم ابي العلاء هذا كله، اراد ان يتفكه فتفكه الى غير حد ، واراد ان ينقد فنقد فى غير رحمة ، واراد ان يكفر فكفر بغير حساب ، واراد ان يؤمن فآمن فى غير شك . اراد هذا كله ووفق الى هذا كله احسن توفيق الخ »

وانما اكثرت من المقتطفات ليتيقن القارىء ان الكاتبين شخصان مختلفان ولا عجب ان يكونا كذلك فان الاسلوب صورة من النفس . وهكذا صار عندنا من المشتركين فى حمل هذا الاسم ثلاثة اشخاص متباينين : شيخ وافندي ودكتور

ويظهر ان هناك اكثر من دكتور طه حسين واحد . ففى بعض المقالات المعزوة الى هذا المتسمى «الدكتور طه حسين» تنويه بأن كاتبهـا كفيف وفى البعض الآخر ما يفيد انه مبصر فهو يقول

« قرأت ورايت وشهدت » وما الى ذلك من الالفاظ الدالة على الرؤية ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلا بل كما هى كائنــة . مثال ذلك بعض رسائل بعث بها من فرنسا وفيها يصف مناظر البلدان ، ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر فى كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا الى التمثيل والاداء ، ومما يؤكد هذا التعدد ايضاً ان لاحد هؤلاء الدكاترة — فانهم على ما يبــدوا لى كثر — ابناء يسميهم اسماء افرنجية ، وان الصحف المحفوظة فى دار الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طه حسين والبعض يذكر الدكتور طه وواحدة تزعمه استاذاً فى الجامعة واخرى صحفياً ، ومعروف ان قوانين ذلك العصر لا تجــيز ان يكون المرء موظفاً فى جامعة اميرية وصحفياً فى الوقت عينه . واحد هؤلاء الدكاترة كان مولعاً باللاتينية واليونانيــة وكان يلح على وزارة المعارف ان تدرسهما فى المدارس الثانوية ولا يكاد يتفق ذلك مع الصبغة الازهرية الاولى . اضف الى ذلك ان « الشيخ طه حسين » كان ذا لحية وان دكتور الجامعة او الصحفي كان افندياً حليقاً ، فالامر كما ترى لا يعدو احدى اثنتين : ان يكون هناك اشخاص عديدون بهذا الاسم ، وهو غير محتمل ، او ان يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الارجح » .

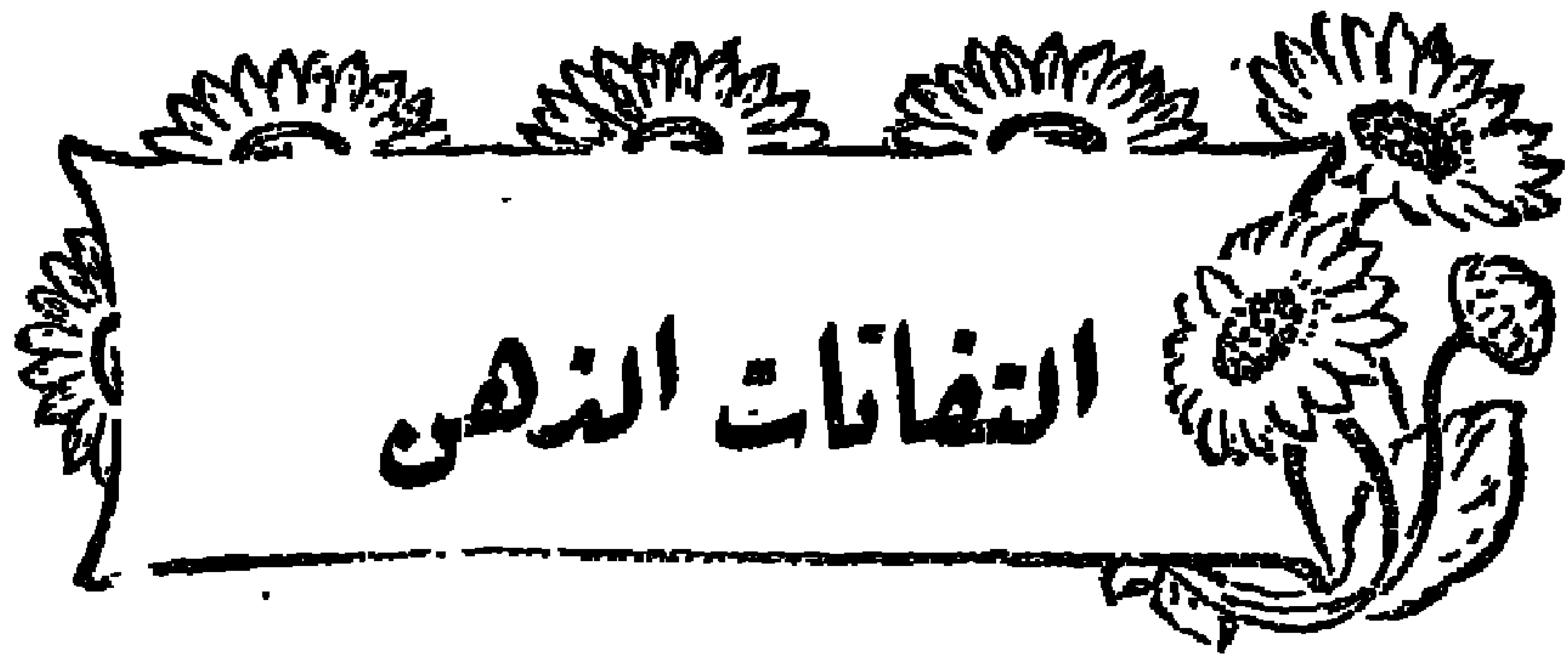
* * *

وبعد فكيف يرى القراء هذا المنطــق ؟ اليس مهلهلا واهن

الاركان متداعى البنيـان ؟ نعم هو كذلك بلا نزاع ! ولكنه ليس اوهى من منطق الدكتور فى كلامه عن المجنون. ولقد اردنا ان نثبت بهذا التطبيق انه ما هكذا يكتب التاريخ ولا على هذا النحو يكون « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » وانه اذا كان مجرد التضارب فى الروايات والعجز عن التوفيق بينها يكفيان لمحو رجل من الوجود فقد صار ذلك سبيلا الى انكار كل شىء

ولقد تعمـدنا فيما اوردنا ان نسوق اشياء من هنا وههنا وان نهمل الصلات الـكائنة بينها لان كثيراً من حلقات السلسلة يسقط مع الزمن ولأن هذا على الارجح هو كل ما يبقى معروفاً عن المترجم له بعد قرن اوقرون . وهل فى تراجم العرب مثلا اكثر من هذا ؟ هل يعرف احدنا عن شاعر اموى او جاهلى ما هو اوفى او اشد اتساقاً مما اوردنا من حياة الدكتور ؟ كلا ! فاذا كان الدكتور طه يبيح لنفسه ان ينكر وجود المجنون اعتماداً على التضارب فى الروايات ونقصها وتشويهها فقد ضاع الدكتور نفسه والله ؟ وشبيه بهذا ان يختلف شهود حادثة فتنكر وقوعها





نعود الى الدكتور طه حسين لنُحييه بعد أن نكرناه ولنقول كلمة فى التفاتات ذهنه واتجاهات خواطره ، كان حقها التقديم ولأمرٍ ما تأخرت ، ولقد بينا من قبل أن المرء يترجم عن نفسه ويكشف عن دخائلها ويعرض على الناس جوانبها فى كل ما يكتب ، قصد الى ذلك أم لم يقصد ، ولعل العمد مفسدة ، وأتم ما يكون الكلام حين ينطلق على وجهه فى غير تكلف ، ومن الذى وسعه أن يقف على مستسر نفسه ويحيط بما انطوت عليه من مضمراتها ؟ هذا ، ولو لم يكن من ذاك إلا أن لكل امرىء أسلوبه فى الكتابة وفى الطريقة التى يتناول بها موضوعه والجهة التى يطرقه منها لكان ذلك حسبنا .

ولقد لفتنى من الدكتور فى كتابيه : « حديث الاربعاء » — وهو مما وضع — « وقصص تمثيلية » — وهى ملخصة — ان له

ولعًا بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة . وقد ينكر القارىء أن أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ، ويقول انها ليست له وان كل ما له فيها انه ساق خلاصة وجيزة لها . وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه كالابتكار سواء بسواء وانما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه . ولست بمازح حين أنبه الى ذلك . وها هو ذا حديث الاربعاء ماذا فيه ؟ فيه كلام طويل عن العصر العباسى ، وللعصر العباسي وجوه شتى ، وفى وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته أو علمه أو شعره ، وجده أو هزله . ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك انه عصر مجون ودعارة واباحة متغلغلة الى كل فرع من فروع الحياة . فلماذا ؟ لأية علة يغضى عن الجوانب الاخرى لذلك العهد ؟ بل قل لماذا لا يرى فى غير الماجنين والخليعين صورةً منـــه ؟ ولست أفترى عليه فانه القائل فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه « ادرس هذا العصر درساً جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة ، هى ظاهرة الاباحة والاسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدباً . فقــد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطر الخلفاء من بنى العباس الى ان يبطشوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء

الأدب العربى القديم والعادات العربيـــة القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر ازدراء الامة العربية نفسها وتفضيل الامة الفارسية عليها، وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله . وليس يعنينا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدرَ هذا التغير وانما الذى يعنينا ان هذا التغير قد وجد وقوى حتي ظهر فى الشعر ظهوراً جعل انكاره مستحيلاً »

ولم يكف الدكتور أن يعمد الى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر بل هو ينكر ان غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العهد العباسى : واقرأ له قوله فى ص ٥٠ من هذا الكتاب

« . . فقد بينا فى ذلك الحديث ان هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً وكانوا أشد له تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين واصحاب الكلام وان هؤلاء العلماء على ارتفاع اقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى ان كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ولها، كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة « فى سره » كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم »

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر؟ كلا يا سيدى! بل يجرى الى آخر الشوط ويقول فى الصفحة التاسعة والثلاثين من

كتابه « خسرت الاخلاق من هذا التطور وربح الأدب فلم يعرف العرب عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف فى فنونه وألوانه كهذا العصر ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق فى ذلك العصر والعصور التى وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً فى الجاهلية ولا فى صدر الاسلام ولا فى أيام بنى امية وانما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب أو عند ما انتقل العرب اليها فاستقر سلطانهم فى بغداد وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل »

واذا سمعت رجلاً يقول ان الاخلاق فسدت وخسرت وان الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر اذا قلت انه ينفح عن هذا الفســاد ويسوغ هذه الخسارة ؟ ؟ نعم بلا ريب ، وانت تحس من كلامه الرضى والارتياح ، ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله فى عقب ما سقنا لك « وانما الذى يعنينا الآن ان نلاحظه ان هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا اليه من شك فى كل شىء وعبث بكل شىء واسراف في المجون واللهو كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً اكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو اثم يقترف وكانت اللذة والآثام حديثهم اذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغــة والفلسفة

حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء فقد كان الاماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة فيلذون و يتحدثون فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى والعقل العربى ، كانت هذه الاحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل » اﻫ ص ٤٠

ثم مضى يورد سير أبى نواس ومن اليه من مثل الوليد بن يزيد ومطيع ابن اياس وحماد عجرد والحسين بن الضحاك ووالبه ابن الحباب وابان ومروان ابن أبى حفصة ويقول فى بيان الحكمة فى ذلك انه لا يريد أن يكتفى بالقول « بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد واصحاب الشك والمشغوفين بالجد انما كان عصر شك ومجون وعصر افتنان والحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين ايضاً . . . وانما أريد أن اشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون تشخيصاً لا يجعل الى الشك فيها سبيلاً ثم اريد ان ابين ان هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون، ان سخط عليهم نفر قليل من الفقراء واصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم واهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون اليهم و يتفكهون بما يوصفون به من ظرف وما يروى عنهم

من هزل ومجون واذا كان هؤلاء الشعراء واصحابهم من حرية الرأى ومن الاسراف فى حب اللذة والتهالك عليها سراً وجهراً بهذا الحد . . . واذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين ، اقول : اذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى ان هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر ايمان ويقين فى جملتــه وانما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات » اهـ ص ١٨٤

وحسبنا هذه المقتطفات التى تعمدنا الاستكثار منها لينتفى كل شك فى ان الدكتور يلح فى اثبات ما يذهب اليه وان هذا الرأى الذى عنَّ له وعالج اثباته مستغرق لذهنه وانه يصرفه عن اجالة الفكر فى كل جانب آخر من جوانب الحياة فى ذلك العصر .

ولا يسمح لنا ما نقصد الى تبيينه بمناقشة الدكتور فى رأيه لئلا يختلط الامر علينا وعلى القراء ونكتفى بملاحظة واحدة هى انه ما من عصر يمكن ان يكون له جانب واحد كما يريد ان يصور لنا العصر العباسى . وانه لم يخل زمن قديم او حديث من مثل ما يصف الدكتور . ولو ان كاتباً تناول عصرنا الحاضر لألفى مجال الكلام ذا سعة على نحو ما فعل الدكتور . ولـكنه لا يكون صادقاً ولا دقيقاً اذا ذهب يزعم ان حياتنا الحاضرة قائمة على الفسق والفجور والدعارة والاباحة والزندقة والالحاد من أجل ان الشعراء والكتاب — وانا منهم ولا فخر — ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا وان الناس

يتفكهون فى مجالسهم و يرفهون عن نفوسهم بالتلهى والمجانة أحياناً وان ذلك يعجب الفارغين و يروقهم

و بعد ذلك نعود الى ما كنا فيه وننتقل الى قصص الدكتور ولنبدأ بقوله عنها « فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفواً وانما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفـة و يلذ العقل أو يدعو الى العناية والتفكير » فليس فى الأمر مجـال للتأول والتمحل والاحالة على الاتفاق والمصادفات فان العمد هنا معترف به . ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة فى أسطر قليلة . هذا مطلب لا سبيل اليه . وعلى أنها قصص متداولة فحسبنا أن نقول دون أن نخشى اعتراضاً أنه ما من قصـة منها الا وهى تنطوى على نوع أو أنواع من « الخيانات » أو مما يسميه الدكتور « الشر والنكر » ويقول الدكتور أنه انما كتبها وجمعها ونشرها لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية « على نحو من انحاء الأدب الغربى » ولأنه يرغب « أن يكون بهـذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الادباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصة يحملهم على أن يعنوا بهـذا الفن الناشىء فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً »

وللقارىء أن يسأل : لماذا لم يؤثر الدكتور « نحواً » آخر من « انحاء » الأدب الغربى وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيره ؟ ؟ لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزوانى و بحكايات

الجهاد — كما يقول هو — « بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من جهة أخرى . بين العواطف والشعور الفردية من ناحية وبين القانون والاوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى . بين العواطف وبين الواجب وبين العقل وبين الدين ثم بين القانون وبين الدين أيضاً » ؟ ؟

ألا ترى أن صنيعه فى اختيار هذه القصص كصنيعه فى اختيار من كتب عنهم من العباسيين ؟ ؟ فكما انه ترك أبا تمام والبحترى والشريف ومهياراً والمتنبى والمعرى من فحولة شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة والاستهتاك ، كذلك لم ينتق من كنوز الأدب الغربي الا هذه القصص الحافلة بضروب « الآثام والمنكرات » حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه القصة الا من هذا النوع . وهو يصف كل قصة يلخصها بأنها « لذيذة » وبأنها « ممتعة » وقد يعتذر لصاحبها بأنها « ليست شيئاً اخترعه اختراعاً وانما هى شىء طبعى يقع كثيراً » ويسأل أحياناً كالذى يريد أن يسوغ هذا الشر والمنكر « من الذى يستطيع أن يوفق بين نفسه وبين واجبه حقاً؟» يقرر طوراً أن الحب فى هذه القصة « حب علماء » ويهون عليك ما فى أخرى بأن واضعها « اذا كان يمثل أشنع الرذائل وأقبحها وأبشع مظاهر للطبيعة الانسانية » فانه « اذا بلغ بهذه الرذائل أقصى ما يمكن أن يبلغ بها من الشدة والقبح استخلص منها الخير والفضيلة وأظهر لك أن الانسان قد يكون شريراً وان حياته قد

تمتلىء بالآثام والمنكرات ولكن فى هذه الحياة أو فى هذه الطبيعة الانسانية قبساً من الخير. لا تكاد تختصم الرذائل وخصـال الشر حتى يتولد هذا القبس من اختصامها فما أسرع ما ينبعث منه ضوء هادىء مريح يبدد هذه الظلمات ويمحو هذه الآثام وإذا النفس الانسانية طاهرة قد فطرت على الطهر، وخيرة قد برئت على الخير»

ونحسب الآن أن نزعة الدكتور قد صارت ملموسة باليـد. فهل لها تعليل؟ هل فى وسع الكاتب منا أن يبين لماذا كان الامر كذلك والحال على ما وصفنا للقراء؟ نعم. والعلة ظاهرة والكلام حاضر.



العمى والغريزة النوعية

— ١ —

ليس الأعمى كالبصير . هذه ، فيما نظن ، قضية مبرمة . ولسنا نعني أن أحدهما دون الآخر أو أفضل منه ، فليس المقام مقام مفاضلة ، ولكنا نعني أنهما مختلفان وهل يستوى أن يكون أو لا يكون للمرء في وجهه عينان ؟ أليس لهذه الجارحة عمل يمتنع اذا تعطلت ؟ ألا يحدث كف البصر تأثيراً في مزاج الانسان وفي تفكيره واحساسه بالحياة والناس وغير ذلك مما لا يسعنا حصره ؟ نعم . وان الامر لأوضح من أن يحتمل الخلاف . وسنتناول في هذا المقال وجهاً من وجوه الاختلاف العديدة لعل ذلك يجلو ما أشرنا اليه في الفصل السابق انجازاً لوعدنا واتماماً لكلامنا .

الغريزة النوعية من أقوى غرائز الانسان ، ومظهرها الحب كما هو معروف ، والحب — كما لا نحتاج أن نبين — هو أداة التنظيم الكبرى لحياة الناس ، والقوة الدافعة الى تحسين النوع والحيلولة دون

انحطاطه . وليس هنا محل الكلام فى الحب ولكن هنا موضع التنبيه الى أن العين أداته الأولى ، والنظر حاسة «اجتماعية» ليس أعون منها على الاحساس بالجمال ومضاعفة هذا الاحساس وتقويته

ومن هنا عجب الناس لبشار بن برد كيف يعشق امرأة « معينة » وهو ضرير فسألوه فى ذلك، أو أحس هو ان الامر يحتاج الى ايضاح وتفسير، فذكره فى شعره فكان مما قاله :

يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة
والاذن تعشق قبل العين « أحيانا »

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم
الاذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقد أحسن الاحتياط فى قوله « أحيانًا » فما تستطيع الاذن أن تقوم مقام العين أو تسد اختلالها، ولقد صدق ابن الرومى حين قال:

هل العين بعد السمع تكفى مكانه
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟ ؟

ولكل منهما عمل . وتأمل بيتى بشار اللذين سقناهما لك وانظر كيف روى عن الناس انهم قالوا له انه « يهذى » بمن لا يرى . وما أرى أصلح من هذا اللفظ ولا أحق بهذا الموضع . وهل هو الا ضرب من الهذيان الصريح مهما أولته وكيفما خرجته ؟ ولقد احتاج أن يكرر الرد والاحتجاج لنفسه فقال :

وكاعب قالت لأترابها يا قوم ما أعجب هذا الضرير!
هل يعشق الانسان من لا يرى فقلت والدمع بعينى غزير
ان تك عينى لا ترى وجهها فانها قد صُورت فى الضمير

وما نشك فى انها صورة ملتاثة ان صح أن من الممكن أن تتمثل لضمير الأعمى صورة ما، أو يجاوز الأمر معه الاحساس العام. وعلى أى شىء تراه يقيس ؟ ومن أى شىء يؤلف هذه الصورة ؟ وقوله :

ان سليمى، والله يكلؤها كالسكر تزداده على السكر
بلغت عنها شكلاً فأعجبنى والسمع يكفيك غيبة البصر

وقوله :

عجبت فطمة من نعتى لها أيجيد النعت مكفوف البصر؟

وقوله

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الاذنان الا من القلب

ولأمر ما عالج هذا المعنى فى قصائد عدة ولم يجتزىء بالاشارة اليه مرة. والعين باب القلب كما يقول البحترى

وما كان حظ العين فى ذاك مذهبى
ولكن رأيت العين بابًا الى القلب

والجمال منظر ومعان وتعبير والعين أقدر من السمع واللمس على افادة الاستمتاع به اذ كانت هى الطريق الأكبر للالتفات

اليه والشعور به والاحاطة بمعانيه . ولأنها هى المعين على تأليف الصور الذهنية . وهى صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة وحصلت بالنظر . وبحسبك أن تقرأ قصيدة ابن الرومى فى وحيد المغنية وكان بها مشغوفًا :

غادة زانها من الغصن قدٌّ ... ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ... ين ذاك السواد والتوريد
فهى برد بخدها وسلام ... وهى للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها ... غير ترشاف ريقها تبريد
وغرير بحسنها قال صفها ... قلت : أمران ، بين ، وشديد
يسهل القول انها أحسن الاشيا ... ء طرًا ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليها ... فشقيّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ... ها وقمرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى ... من سكون الاوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عينٌ ... لك منها ، ولا يدر وريد
من هدو وليس فيه انقطاع ... وسجو وما به تبليد
مد فى شأو صوتها نفسٌ كا ... ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجي فكاد يبيد
فتراه يموت طورًا ويحيا ... مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشيٌ وفيه حلى من النغم ... مصوغ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجع فيه ... كل شيء لها بذاك شهيد

وحسان عرضن لى، قلت مهلاً — عن وحيد، فحقها التوحيد
حسنها فى العيون حسن جديد — فلها فى القلوب حب جديد
ونصيح يلومنى فى هواها — ضل عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى — وهو لى المستريث والمستزيد
خلة للفؤاد يحنو عليها — وهى تزهو حياته وتكيد
سحرته بمقلتيها فأضحت — عنده والذميم منها حميد
خلقت فتنة غناء وحسناً — ما لها فيهما جميعاً نديد
فهى نعمى يعيد منها كبير — وهى بلوى يشيب منها وليد
لى حيث انصرفت منها رفيق — من هواها، وحيث حلت قعيد
عن يمينى وعن شمالى وقدا — مى وخلفى فأين عنه أحيد
سد شيطانُ حبها كلَّ فج — ان شيطان حبها لمريد
ليت شعرى اذا أدام اليها — كرةَ الطرف مبدئٌ ومعيد
أهى شىء لا تسأم العين منه — أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هى العيش لايزال متى استعر — ض يملى غرائباً و يفيد
منظر، مسمع، معان من اللهو، — عتاد لما يحب عتيد : الخ الخ

وقد أطلنا الاقتباس لانا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغة العرب وقد كدنا نقول أو فى سواها من آداب الأمم الاخرى — هى أجمع من هذه لمعانى الحب والجمال، ولأن ابن الرومى تناول فيها المرئى والمسموع . ولقد يذكر الكفيف الغصن والظبى وما اليهما مما يشبه به شعراء العرب، ولكن هذا منه لا يكون الا تقليداً وعلى السماع

و بمقدار ما أشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها ، ومن غير أن يكون ذلك صادراً عن صورة فى الضمير وأى صورة فى ظنك يمكن أن تكون قد حصلت فى نفس بشار وهو يقول

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا ؟

لا صورة على الاطلاق ! وكل ما هنالك مما دفعه الى هذا التشبيه هو نسيم الرياض المنعش للجسم المحيي للنفس . وقد يتناول المكفوفُ الصوتَ ووقعه ، ولكن الهيئة والشكل يفوتانه ، ولا يسعه أن يحضر بما يسمع ما يحضره البصير ويتمثله من الصور كما فعل ابن الرومى فى وصفه لغناء وحيد فقد تراه يتعلق بهيئتها وسكون أوصالها إذ تغنى واحتفاظها بجمال شكلها فلا عين تجحظ كالوارمة ولا وريد يدر ويمتلىء بالدم وينتفخ ويشوه شكل الجيد وانسجامه . وانظر كيف جعل لغنائها وشياً وحلياً « مصوغاً » لا ساذجاً لم يعمل فيه الفن، وجعل الشعر «يختال » فى هذا الحلى ، وكيف مثل لك فسحة الخلو وفراغ البال بالقياس الى ما صار اليه من أخذ الحب عليه بالاسداد ، وذلك بقوله « سد شيطان حبها كل فج » وكيف نبه الى ما يمليه النظر ويفيده من معانى الجمال بقوله « ألها كل ساعة تجديد ؟ » وتشبيهه اياها بالعيش الذى لا يزال يعرض الغرائب

ومالنا نقول ان بشاراً اضطر أن يعلل عشقه للنساء بأعيانهن بتشبيبه بهن ؟ ما بشار هذا ؟ انه ليس سوى فرد قد لا يصح اتخاذه

قاعدة ولكن تأمل أمثال الامم وأساطيرها فانها خلاصة صادقة لتجاريبها وغرائزها . ومن الامثال التي نجدها في كل لغة أن الحب أعمى . نعم . ولقد صور القدماء « كوبيد » معصوب العينين . وليس أحذق من هذا الطفل مع ذلك ولا أسد ساعداً ولا أحكم ، وكأنما أرادوا أن يقولوا انه لا يرى ما لا يحب بل أرادوا أن ينبهوا الى أن كوبيد هذا كله عيون ولولا ذلك ما عصبوها فلفتونا اليها ودلونا عليها . ولو شئنا لاجتزأنا بهذا من أساطير القدماء ولكن بنا حاجة الى أسطورة أخرى . تلك أن فينوس أو الزهرة كانت في بادىء الأمر ربة الربيع وبساتين الزهر، ثم جعلوها ربة الجمال . وفي ذلك ما لا يخفى من الشعور الباطني بالعلاقة القوية بين الحب والطبيعة في عيدها . وفي خرافاتهم أن الزهرة هذه مخلوقة من زبد البحر ، ومن حقها أن تولد منه . فياما أفطن القدماء وأهدى غرائزهم ! ذلك أن المحدود الذي يقاس طولاً وعرضاً لا يروقنا ولا يقع من نفوسنا كما يستولي على هوانا ويسحرنا ما تتدفق فيه الحياة . والجمال ليس شكلاً فحسب بل هو أيضاً تعبير ولحظة انتقال كأنما يريد الشكل المجتلى أن يتدفق في أشكال أخرى وكل ثبات أو تكويم أو ركوز أو حصر مفسدة كما تحس ذلك من الأنف الضخم أو الظهر المحدودب . ومن هنا كان الانسان أجمل ما في الطبيعة . ومن الوجوه ما يموج فيه تعبير النفس أو حركة الفكر حتى لتكاد تتخطى العين معارفه وتخطئها ولا تراها .

والعيون نصف الجمال ، وهى مدار السحر ومبعث الفتنة لأنها أنطق الجوارح وأقدرها على التعبير ، وليس من المصادفات أن ولع الشعراء بذكرها ورمزوا بها فى كثير من الاحيان الى الجمال وأطلقوا هذا الجزء على الكل ، كما ترى مثلاً من قول المتنبي

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل

عياء به مات المحبون من قبل

فما يعنى الاحداق على وجه التخصيص ، وانما هو من قبيل ما ذكرنا . وليس فى وسع المكفوف أن يحس الجمال كما يحسه البصير أو يتأثر به مثله ، لأنه ليس محروماً من منظره وحده بل من أكثر معانيه كذلك ، ومما يتصل به عن قرب أو بعد ، ومن الطبيعة أيضاً . وقد حجب عنه كل ما يمكن أن يقيس به وأحر بأن لا يكون عنده فرق يذكر بين النساء وأن تكون كل امرأة متسربة فى الجنس ، والاحساس بها احساساً جنسياً عاماً ، وأن تكون النساء كلهن كأنما أفرغن فى قالب عام ، وقيمهن واحدة من حيث التناسل ، وأن لا تثير الغريزة النوعية الا رغبة عامة فى الانثى . لا ترتقى (أى الرغبة) الى درجة التمييز ولا تبلغ أسمى منازله لانعدام ما يعين عليه . وفى وسعنا أن نقول مع قليل من التجوز ان الفرق بين المكفوف والبصير من هذه الناحية كالفرق بين الشعوب الساذجة التي لا تزال على الفطرة والشعوب التي ارتفعت عن هذا المستوى وصار التميز الفردي .فيها حاداً أو بارزاً مؤكداً — تلك تكون الغريزة النوعية عندها .عبارة

عن رغبـة عامة من الذكر فى الانثى ومن الانثى فى الذكر . وهذه تتوخى التعيين والاختيار ، وكذلك الكفيف تستوي عنـده امرأة وامرأة ، وهو اذا اختار وميز لا يكون ذلك مرجعه إلا إلى أسباب لا نخطىء جداً اذا قلنا انها سطحية أو عارضة بعد أن لم يبق له من الأدوات سوى السمع واللمس وما أقل غناءهما وأشد ضلالهما

٢

المرأة بين بشار وأبي العلاء

السمع واللمس — والشم أيضاً — كل ما للمكفوف من وسائط الاحساس بالجمال ، وهى ، كما بينا ، أقل من النظر غناء ، لأن العين هى الاداة الكبرى . وهى أنفس الجوارح وأوثق الحواس اتصالاً بالعقل ، حتى لترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمـدة من حركاتها واحساساتها ، والعقل عنها أفهم وبهـا أقوى وأقدر ، وما يسع الكفيفَ أن يفهم الجمال أو يحسه أو يتأثر به كالبصير ، والمرأة عنده فى الأعم أنثي يصبو جسد الرجل إلى جسدها،وأداة يرضى بها غريزته . وهو مهما بلغ من السمو يظل إحساسه بالمرأة أدنى إلى الطبيعة الحيوانية منـه إلى المعاني النفسية . وسنورد لك أمثلة من شاعرين متباينين أشد التباين : بشار والمعرى . وكان أولهما حيواناً

والثاني إنساناً،وكان بشار إن فرغ من التشبب بالنساء، أوعلى الأصح من وصف ما يشتاق اليه منهن ويطلبه عندهن من اللذات ، لم يفرغ من ذكر فحولتـه ، وتنزّيه فهو أبداً حيوان حين يذكر نفسه وحين يذكر المرأة . فمن ذلك ما حكوه من انه علق امرأة وراسلها يسألها أن تواصله فقالت لرسوله « أو لك فىّ وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلا حظ لى فيك ؟ فليت شعرى لأى شىء تطلب وصال مثلى؟» فأدى الرسول الرسالة . فقال بشار عد اليها فقل لها – ونحن نمسك عن إيراد الابيات لفرط ما فيها من الفحش ، وحسب القارىء أن يعلم انه أهمل كل ما يمكن أن يتفاضل به الرجال ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذى يتساوى عنده الناس والبهائم ، وأخلق بالبهائم أن ترجح على الانسان من هذه الناحية ، وحتى حين يتخيل حبيبته لا يخرج بهـا عن دائرة الحواس ، ومن ذلك قوله فى عبدة :

أعددت لى عتباً بحبكمو يا عبد طال بحبكم عتبى
ولقد تعرض لى خيالكمو فى القرط والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجاً برضاب أشنب بارد عذب

والمرأة عنده أنثى تُشتهى وتنال ولا تستعصى على الطالب

قاس الهموم تنل بها نجحاً والليل ، إن وراءه صبحا
لا يؤنسنك من مخبأة قولٌ تغلظه وان جرحا
عسر النسـاء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا

وهو القائل أيضاً : .

لا أبالى من ضن عنى بوصل　　إن قضى الله منه لى يوم جود

وكان يعمل بما يعلم ، وحكايته مع أمامة مشهورة . قالوا كان يبعث بغلامه اليها فتتمنع فلما أضجرها بالحاحه عرفت زوجها ، فقال لها أجيبيه وعديه أن يجيء إلى هنا ، ففعلت وجاء بشار مع امرأة أنفذتها اليه فدخل وزوجها جالس وهو (بشار) لا يعلم فجعل بشار يحادثها ثم قال

امامة قد وصفتِ لنا بحسن　　وانا لا نراك فألمسينا

فأخذت يده ودفعتها الى زوجها ففزع بشار ووثب ؟ ! ومن قوله

قال ريم مرعث　　فاتن الطرف والنظر

لست والله مدركى　　قلت : أو يغلب القدر

وله رأى فى شعر النساء يوافق تصويره لهن قال : ما من شعر تقوله امرأة ألا وفيه سمة الخنوثة : ولبشار حكاية ليس أنم منها على انحصار الاحساس بالمرأة فى الرغبة الحيوانية وانتفاء الاهتمام بما وراء ذلك والعجز عن ادراكه ، ولكنا مع الاسف لا نستطيع أن نسوقها لشناعتها فليبحث عنهـا من شاء فى أخباره المبعثرة أو فيما جمع له الاديب احمد افندى القرنى . ونوجز فنقول ان بشاراً لم يكن ينظر إلا إلى الانوثة فى المرأة والفحولة فى الرجل ، وانه لم يعرفها سوى متاع يجس ويشم ويستمع اليه

أما أبو العلاء فقد كان وقوراً محتشماً متشائماً رافضاً للحياة

مزدرياً للمرأة . وهى (أى المرأة) عنده لا تُضمن عفتهـا ، وأقل ما تجنيه ، التبرج ، ومن الواجب أن يداريها الرجل الذى يعايشها ويسترضيها ويتقى غضبها ويراقبها ، فكثيراً ما تظهر الغيرة على بعلها وتسود عيشه من أجل ذلك بينما هى تسقى الخليل ريقها !

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة
من الفكر إلا وارتقيت هضابها
أقل الذى تجنى الغوانى تبرج
يرى العين منها حليهـا وخضابها
فان أنت عاشرت الكعاب فصادها
وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمر حليلها
من الغار ، إذ تسقى الخليل رضابها
وان حبـال العيش ما علقت بها
يد الحى إلا وهى تخشى انقضابهـا

ويحول سخطه على الحياة ، اليها ، ويصب نقمته على رأسها ، ويقلب ما يكبحه من اشتهاء نفسه لها ورغبة جسمه فيها ، فيجعله تهالكاً منها على اللذات واستهتاراً فى ارضاء الشهوات ، ويسلبها كل ما عدا ذلك ولا يراها إلا أداة نسل ومطية شهوة ذلول فهى عنده حية سامة

وانما الخود فى مساربها كربة السم فى تسربها

وما فضل النساء ؟ ولأية غاية يطلبن الرجل ؟ أليس للنسل ؟

صحبنك فاستفدت بهن ولداً   أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء   بذلك عن نوائب مقتمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق   وأرزاء يجئن مصممات
وان تعط الأناث فأى بؤس   تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً   ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب   ولا فى غارة متغشمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً   فيا للنسوة المتأيمات

وما النساء عنده إلا

فوارس فتنة أعلام غى   لقينك بالاساور معلمات

ولا يغرنك عكوفهن على المصلى

وليس عكوفهن على المصلى   أماناً من غوارر مجرمات

والمغزل أولى بهن من القلم

ولا تحمد حسانك ان توافت   بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى   بهن من اليراع مقلمات

وليكن أخذهن التلاوة عن عجوز مهتمة

ليأخذن التلاوة عن عجوز   من اللائى فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح   ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن   اذا قلن المراد مترجمات

واذا احتاج الامر لمعلم فينبغى أن لا تدنو الفتاة حتى ولا من رجل ضرير الا أن يكون هرماً هماً مرتعش اليدين أبيض اللمة

ولا يدنين من رجل ضرير   يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه   ولمته من المتثغمات

وخير للشيخ الفقير أن لا يتزوج متنعمة فأن الفقر والشيخوخة بابان الى العظائم ، والشيب مغتفر مع الغنى اذا كانت « قوى الرجل موفورة » وفى زوجة واحدة كفاية :

ولا يتأهلن شيخ مقل   بمعصرة من المتنعمات
فأن الفقر عيب ان اضيفت   اليه السن جاء بمعظمات
ولكن عرس ذلك بنت دهر   تجنبت الوجوه محممات
ويغتفر الغنى وخطاً برأس   اذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز   الى أخرى تجيء بمؤلمات

ويختم هذه النصائح بأنها من خبير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق   ونصح للحياة وللمات

والرجال لا يؤتمنون على النساء

وأمن على المال الرجالَ ولا   تأمنهمو أبداً على الخرد

واذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه ولا تدخله عليهن فأنهن حبال غي بهن يضيع الشرف

اذا بلغ الوليد لديك عشراً   فلا يدخل على الحرم الوليد
فأن خالفتنى وأضعت نصحى   فأنت،وان رزقت حجى،بليد

الا أن النساء حبال غى ... بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فأن ارخاء العنان لها يغريها بركوب ما لا يحمد

شر على المرأة من حمامها ... ارسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها ... تفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد فى ألمامها ... تأثم ، والخيبة فى أتمامها
بأجدل ماعف عن كمامها ... أعاذها الخالق من أمامها
وريقها الشروب فى صمامها ... سمام أفعى بان من سمامها
ان نزلت عصماء من سمامها ... فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها ... لزومهـا البيت مع اهتمامها
حتى يجيبها الوفد من حمامها ... وحملهـا المغزل فى اتمامها
أوفى بما تعقـد من زمامها

وأخف ما وصفها به انها خيالات ولعبة :

وما الغوانى الغوادى فى ملاعبها ... إلا خيالات وقت أشبهت لعباً

وانتقل الآن من شعره الى نثره ، ومن كلامه فى الدنيا وأوصابها ومتاعبها إلى تخيله للآخرة ونعيمها الخالص الخالد ، وتأمل وصفـه للحور العين، وهن على ضربين : ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها،وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة. وهو يجعل ابن القارح يلتقى باثنتين من الضرب الثانى ، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهيجه ذلك إلى مابه ويقول «ان امرء القيس لمسكين مسكين تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعــل به برد أنيابهــا اذا غرد الطائر المستحر

فتستغرب احداها ضحكاً فيقول مِمَّ تضحكين ؟ فتقول فرحاً بتفضــل الله ! أتدرى من أنا ؟ . . . إنى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن فى باب العراق بحلب وأبى صاحب رحى وتزوجنى رجل يبيع السقط فطلقنى لرائحة كرهها من فىّ، وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيــا وتوفرت على العبادة وأكلت من مغزلى ومردنى فصــيرنى ذلك إلى ما ترى » وتقول الأخرى « اننى كنت توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد أبى على الخازن وكنت أخرج الكتب إلى النساخ » . ودع ما فى هذا الموقف من التهكم. واجعل بالك إلى اقباله الشــديد على ترشف الرضاب وشرهه فى ذلك والى صرخته « ان امرء القيس لمسكين مسكين » وتكريره هذا اللفظ وما يشعرك به ذلك من تحرق الرجل الذى يكبح نفسه حتى إذا أمكنته الفرصة اندفع كالمنفجر. ولا تنس تعلقه بالرضاب ورائحة الفم واختصاصه ذلك بالذكر

أما الحور التى خلقها الله فى الجنة ولا تعرف الدنيا فتخرج لابن القارح من سفرجلة أو رمانة ، جارية « حوراء عيناء » فيسـجد لله اعظاماً ويخطر فى نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية ، على حسنها ، ضاوية (نحيفة) فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف

يضاهي كثبان (تل) !! عالج فيهال من قدرة الله ويقول « يا رازق المشرقة سناها ومبلغ السائلة مناها والذى فعل ما أعجز وهال ، ودعا إلى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية » فيقال له أنت مخير فى تكوين هذه الحورية كما تشاء فيقتصر من ذلك على الارادة » وهنا أيضاً تهكم ولكنه مشوب بما لا يخلو من دلالة على التفات إلى الجسد والى مواضع معينة منه التفاتاً كان المعرى يزجر نفسه عنه فى حياته احتشاماً ونقمة

فهو يسيء بها الظن كبشار ، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب ، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية، ولا ينظر إلى ما وراء أنوثتها وخورها وضعفها ،وان كان مزاجه قد ذهب به مذهباً خلاف مذهب بشار ،والنظرتان متفقتان فى النهاية وصادرتان عن أصل واحد ، وان كانتا مرسلتين من نافذتين متباعدتين . وانك لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطرار الى الكف عن التماس الملاذ ، فى شعر أبي العلاء، كما يطالعك من شعر بشار حيوانية التسور الى اللذائذ الحسية . وهو فرق أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل . والعمى فى كلا الرجلين علة أولى . وقد كان ابو العلاء شديد الاحساس بعماه وان" له لهذا البيت :

اذا مر أعمى فارحموه وأيقنوا — وان لم تكفوا— ان كلكم أعمى

وهو حسب المتأمل ولو لم يكن له غيره لكفى

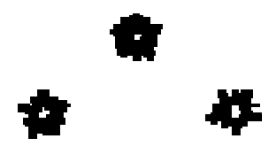
كذلك الدكتور طه حسين . لا يرى الدنيا فلا يعرف عن

الجمال إلا انه أنثى يشتهيها الذكور ويصبو اليها الرجال ، وهو بطبعه مفراح وقد أقبلت عليه الدنيا ومالأه الحظ فلم يجد التشاؤم مرعى له فى نفسه ، ولكنه يؤثر الوقار ويميل إلى تقيّل المعرى والاقتباس به فيكبح نفسه ويردها على مكروهها، غير أن ما لايظهر فى سلوكه الذى يتوخى فيه الاحتشام، يظهر فى كتابته وفى التفاتات ذهنه كما بينا . فلا عجب اذا رأيناه كلفاً بتناول المجان وأهل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص القصص التى تدور على الخيانات وما اليها وتسويغ ذلك والاعتذار له . حتى لكأنما يحاول أن يقول بلسان غيره ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء به من مكنونات نفسه





هي ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعدى ؟ — صحرائى التى لايلقط الطير فيها حباً ، ولا يجاوب فى خرابهـا قلب قلباً ، ولا يغيرها صيف ولا شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟ — كذلك كانت قديماً ، وكذلك أبقاها الله لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها — وجهاً مستعاراً يبدو فيه « الوجه الاعظم » متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد ان يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضُرب عليها وألزمها هذا المحل ! ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هـذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوءه وينام على صدرها المتموج ، فى مثـل وشى الرياض تنفح روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطـير على ايكها اعلاناً ، وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الارض أحياناً » ؟ ! ولكننى أتكلم كانما هى قد رزقت الحس والارادة !



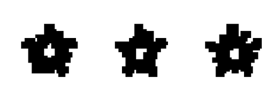
وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منهـا رجلى اقتلاعًا اذ أخبط فى الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء : « بودى لو تماسكت حباتى ، وثبتت ذراتى ، ولانت مواطئي لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به ! »

وهتف بي هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك،وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا[1] لا نملك خلافه ، وقانونًا لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ، وهل نراك تملك من أمرك كثيراً أو قليلاً ؟ »

قلت : « كلا ! »

وانجابت طبقة من الظلمات المخيمة على الصـدر وخلصت أنفاسى قليلاً



وهبت الريح بى كالمجنونة ، فعدت وكأنى أمشى على ماء لجى يعلو ويهبط ، وسفت الرمال في وجهى حيثما أدرته كأنمـا أرادت الحياة أن ترجمنى،وتسابقت زمازمها الى أذنى فوقفت مكاني لا أريمه

---

(١) الآيين القانون

وأغمضت عيني وقلت لنفسي : ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت بهمثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو ينقصف! فملت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر فى هذه الحياة الغريبة التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط بها الالم والطرب ، وأقول لا شك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر . وياليت من يدرى ماذا تصنع اذن ! أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء ، وتمحوه أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الارض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح !

فهمست فى أذنى الرياح : ما الحسن والقبح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر ؟ وما الاحساس والعقل ، والخصب والجدب ؟ والصحة والسقم ، واليأس والأمل ، والبكاء والضحك ؟»

فرفعت رأسي حائراً وأدرت عيني واجماً ثم أطرقت مفحماً ثم نهضت أمشي ! ودلفت بي رجلاى الى المقابر فتخللتها الى جدث فيه شطر من ماضيّ ، وقعدت وأسندت ظهرى الى حجارته وأنا أقول لنفسي « الموت على الاقل راحة ، فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر الى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا الى جانب . . . »

فخلص الى صوت من جانب القبر أن « لا ! »

قلت كيف لا ؟ واستدرت حتى واجهت أصواء القبر .

قال الصوت : لا على التحقيق ! ان لى هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلها أقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل أيامي التى صارت كلها ليالى ، أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حُجبت عنى الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحدٌ من الاحياء ، و يشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً . وأنت –على الاقل– تذكرنى ، فأبق بذكراك ، فلا تسلمنى الى العفاء بموتك . ولسنا نألم الرقاد هنا ، وان كانت ظهورنا توجعنا أحياناً من طوله ،ولكننا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الاخير ، وههنا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جدٌ أعلى لى ، مسكين مسكين قد استوفى ميتاته جميعاً ولم يبق منه شىء . وليت ادكاريه ينفعه ! اذن لرددتُ اليه بعض الوجود ولكن هيهات ! انما يجدى الذكر ممن فوقها دون من هم فى جوفها مثلنا »

قلت « ولكن اذا تعلقتُ بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءكِ ذلك ؟ »

قال الصوت : « كلا ! سيان عندى أن تفى لى ولا تفى ، ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فاننى بعد ان مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره ، ولا ألتفت الى وفائك أو غدرك ، وانى لأدرى فوق هذا ، انك لا تذكرنى لذاتى بل لمـا طابت به

نفسك على عهدى ؛ فافعل ما بدا لك ولا تعنّ نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبق لى رقعةً صغيرة فى زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبةَ البقاء »

قلت : فاذا نسيتك كغيرى ؟

قال الصوت : اذا نسيت ؟ آه ! ولكن ما لنا ومالم يقع ؟ دع هذا الى أوانه ، وعسى أن يكون بعيداً !

قلت : حسن سأحيا من أجلك،وأتقى المهالك اكراماً لك وضناً بك أن تلحق الاموات جداً !

قال الصوت : اتفقنا . فالى الملتقى !

فسرت فى جسدى رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول « الى الملتقى » ! ونهضت عن القبر ممتلئاً رغبة فى الحياة ، وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى الى دارى خفيفاً كأنما حططت عن كاهلى وقراً . وجعلت أقول فى الطريق : « نعم سأحيا من أجلها ! »

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى اذنى الشيطان اللعين « تقول من أجل من؟ ؟ » وقهقه !! فغاظنى ذلك فأشحت بوجهى وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه !! ثم صنعت هذه الابيات وألقيتها اليه من النافذة

* * *

﴿ هاتف من جانب القبر ﴾

جمالَك ! لا تأسف على ولا تأسى
فانىَ تحت الارض لا أحفل الحبسا

طوانى الردى عن ناظريك فجاءة
وما كان ظنى قط أن أسكن الرمسا

أرانى الصبى ، شمسى ، بعيداً مغيبُها
فسرعان ماولى النهارُ وما أمسى !

وكنتُ سرور العين والانف والحشى
فقدصرتُ أُوذى العين والانف والنفسا

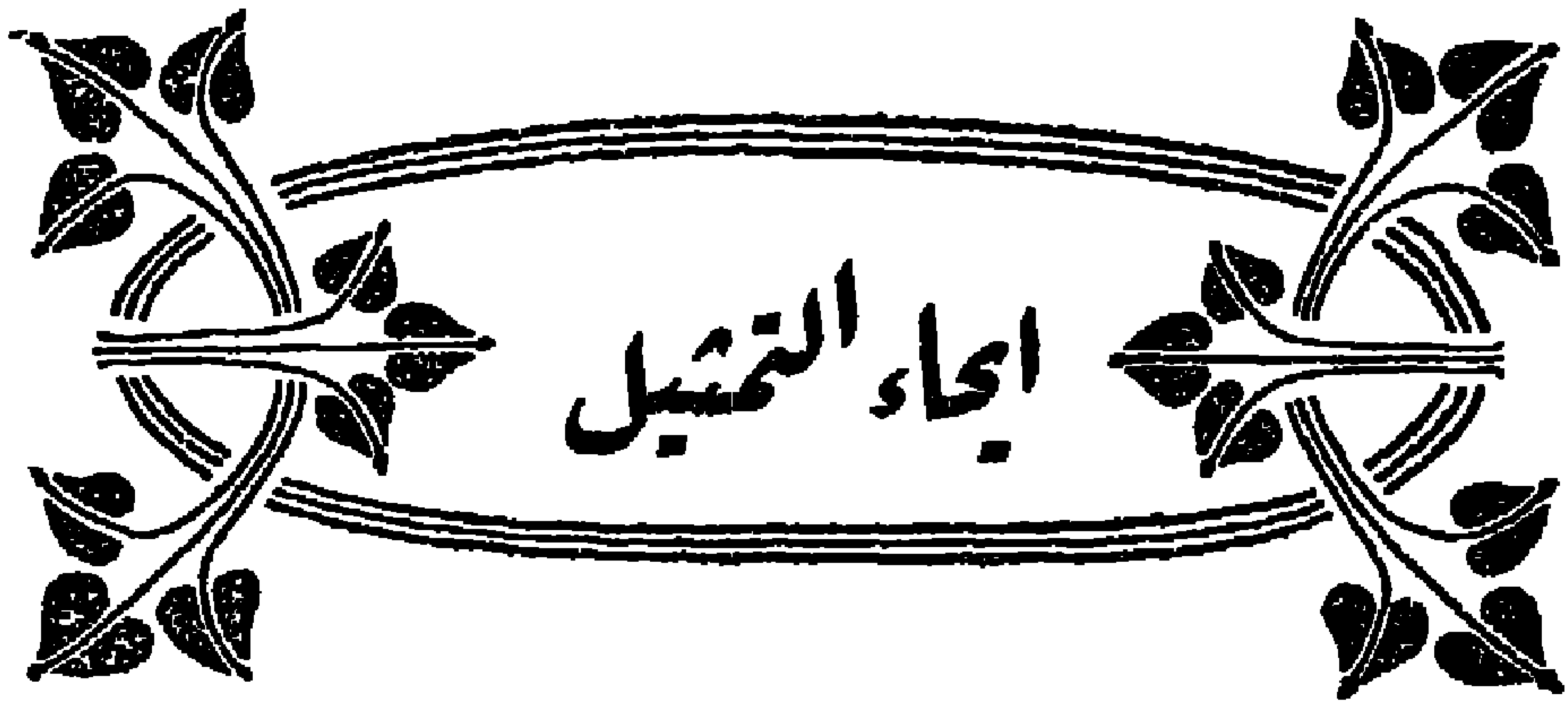
فدع عنك ذكرى انه ليس نافعى
وسيان عندى أن تفى لىَ أو تنسى

ولا تتجشم لى الحفاظَ فاننى
وقد مت ، لا أوليك شكراً ولا حسا

وأدخل اليك الشمسَ من كل كوة
فما يتملى العيشَ من يحجب الشمسا

ستسليك عنى كلُّ زهراء ناهد
وان بقيت ذكراى تهمس بى همسا

فما أنت بالباكى علىّ وانما
على فقدِ ماقد كنتَ طبتَ به نفسا !



من رأي أفلاطون ، فيما وضع على لسان أستاذه سقراط ، ان الحكاية تنشىء العادة . قال « أولم تشاهد أن الحكاية ، سواء أكانت تقليداً للحركات البدنية أو نبرات الاصوات أو أساليب التفكير ، اذا واظب عليها المرء منذ الحداثة ، تحور عادة وطبيعة ثانية ؟ »

وكانت أدوار النساء فى ذلك العصر يؤديها الرجال فعاب سقراط ذلك وزجر الشبان الشرفاء عن « محاكاة » المرأة ، فتاة كانت أو عجوزاً وسواء أكانت تنتقص رجلاً أم تتمرد على الآلهة أو تكابد المصائب والآلام والاوجاع . وهم (أى الشبان) أحق بأن يُردعوا عن تقليد امرأة تعانى مرضاً أو حباً او وضعاً »

وأما أدوار الرجال فليس يجوز فى رأى سقراط لممثلها تقليد الارقاء أو الجبناء أو غيرهم من الناس « حين يشتم بعضهم بعضاً أو يركبه بالمجون أو حين ينطقون بالبذاء والفحش أو يقترفون من

المعايب فيما بينهم أو ضد غيرهم ما اعتاده أمثالهم بالقول أو بالفعل .
ومن رأيي أيضاً أنه لا ينبغي لنـا أن نعودهم أن يحاكوا المجانين فى كلامهم أو أفعالهم لأنه اذا كان من الصواب ألا تنقصهم الدراية بالمجانين والاشرار من الرجال والنساء فليس من الرأي أن يقتدوا بهم أو يقلدوهم »

* * *

هذه خلاصة وجيزة لرأى سقراط ، أو أفلاطون تلميـذه على الأصح ، فيما تجوز ومالا تجوز محاكاته ، وما يحسن أن ينهى الشبان عن تمثيله ويزجروا عن تقليده ، والعلاج عنـده أن تكون الرواية مزيجاً من التمثيـل والقصص ، وأن يقتصر التمثيل على الادوار التى تنطوى على النبـل والسمو وما هو من ذلك بسبيل ، ويذهب القصص بالادوار الوضيعة ، وواضح من ذلك أنه يرى أن لتمثيـل الدور مرة بعـد أخرى أثراً فى نفس من يؤديه . وليس يعنينا هنا علاجه الذى وصف ليصون للجماعة فضائل نفوسها وليوقيها أسواء التمثيل مع استبقاء ما يسعه استبقاؤه من مزاياه المستفادة من الحكاية ومن الشعر فيه ، فانها طريقة للتوفيق لا سبيل اليها فى هـذا العصر الذى لا شك أن نطاق التعاطف الانسانى فيه أوسع وأرحب منه فى عصر أفلاطون ولقـد كانت عناية افلاطون بتربية ما نسميه الآن (السوبرمان) ومن أجل هذا كان يجب أن يوقيه ما يخشى أن يفسد عليه صورته التى رسمها له فى خاطره . وما عن قلة اجلال لافلاطون

أن نعجب (لسو برمان) لا يخرج الى الدنيا الا فى مثل صوب النبات أو فى بيوت من الزجاج ترد عنــه عادية الرياح والقر والامطار !! وماذا عسى أن يبلغ من مناعته ومن الجلد والقدرة على احتمال الحياة ومغالبة صروفها وفتنها و بوائقها ؟

* * *

وما لهذا نكتب . وانمــا الذى نريد أن نقوله هو أنه لا يخالجنا شك فى أن للتمثيل أثره القوى فى نفوس أهله رجالاً كانوا أونساءاً، ومعلوم انه ليس كل ممثل بصالح لـكل دور ، وأن بعض الادوار هى فى أيدى بعض الممثلين أنجح ، ونحسب أن مما هو فى حكم البديهى أن الصفات البدنية وحدها — من طول أو قصر ، وضآلة اوجسامة، ووسامة أو دمامة وسائر ما يجرى هــذا المجرى مما يتعلق بالصوت والنظر — ليست كل ما يتطلبه اداء الادوار المختلفة ، بل ان القدرة على استعارة الشخصية الروائية وافراغها على النفس والجسم، تستدعى استعداداً وتحتاج الى وجود مقدارمن التناسب ودرجة من التطابق. وليس معنى ذلك أن دور الخسيس لا يجيد أداءه الا الخسيس من الناس بطبعه وفطرته ولـكن معنـاه ان أصلح الممثلين له أقدرهم على فهمه وعلى الاحاطة بجوانبه وعلى سهولة التسرب فيه. ومن هنا يسعك ان تقول انه مامن ضرب من التمثيـــل يوفق المرء فى أدائه الا وثم مقدار من التقارب بين هذا الضرب و بين لابسه .

* * *

وما أظن بالممثلين الذين قد يطلعون على هــذا الفصل الا أن بعضهم سيحمى من ذلك أنفه وينزو فى رأسه الغضب على والمقت لي ، وما أحب أن يسوء أحداً كلام لى فى هزل أو جد، ولكن من العسير على أن أصدق أن امرءاً يحسن مالم يركب فى طبعه ذرة من الاستعداد له ، وقد يعزى هؤلاء ويكسر سورة غضبهم ان أقول لهم ان الناس فى الاستعداد للخير والشر متقاربون على كثرة مايتفاوتون واننا جميعاً من طينة الارض « وأين عن طينتنا نعدى ؟ » كما يتساءل ابن الرومى ، ان كان مثل هذا الهراء البديهي يعزى نفساً أو يطفىء غضباً !

كذلك من العسير أن أصدق أن يظل الممثل يستعير نوعاً من الشخصيات معيناً وأن يفعل ذلك شهراً بعد شهر وعاماً فى أثر عام وأن يخرج بعد ذلك كما دخل . وألا يكون من آثار ذلك توكيد بعض الخصائص فيه أو بروز بعض السمات ، عرفت فيمن عرفت من الممثلين المرحوم احمد فهيم افنـدى وكان ذلك فى أخريات أيامه فلفتنى فيـه من صوته وهيئته اذ يمشي أو يقف أو يلتفت او يحدق ببصره مشابه مما يؤدى على المسرح من أدوار الملوك والنصحاء الامناء المخلصين ومن الى هؤلاء . وكثيراً ما تمنيت لو أنى كنت عرفته — رحمة الله عليه — قبل ان يبلغ أثر التمثيل فيه هذا المبلغ . وعلى ان من التعسف ان يلجئنا ما نقدر ان يلقانا به بعض القراء من انكار

الدهشة — لا التفكير — الى سوق الامثلة الفردية وهى مما لا يدخل فى الطوق ان يسوق الكاتب منها الكفاية

وبحسبنا وبحسب القراء أن نرتد جميعاً الى الأصل ، وهو « الايحاء » ولا يتسع المقام هنا للاسهاب فى بيان وقع النفس فى النفس ولكنا ، إيضاحاً لغرضنا نقول ، ان كل حركة باعثها الارادة وان الارادة تفضى ببواعثها على الحركة الى الجهود المدركة للفكر أو لغير المدركة من الجانب الاحساسى . فاذا كان مصدر هذه الجهود التى تغرى الارادة بالنشاط ليس ذهن الفرد نفسه بل ذهن أجنبى عنه وبعبارة أخرى اذا صارت ارادة المرء طوع رأى سواه أو عاطفته فان ما يصدر عن أولهما يكون موحى به اليه . وقد فسر نورداو هذا الاعداء فى فصل طويل ممتع سبق به كل علماء النفس ويلخص رأيه أو نظريته فى أن « الايحاء هو نقل الحركات الذرية من ذهن الى ذهن على النحو الذى تنتقل به اختلاجات سلك الى سلك غيره بجواره ، أو كما يفضى قضيب الحديد المحمى الى آخر بارد بحركات ذراته . ولما كانت كل الآراء والخوالج تنطوى على حركات لذرات الذهن فان مما يستتبعه نقل حركات الذرات أن تنتقل الآراء والخوالج معها »

وأظهر ما يكون ذلك فى التنويم المغناطيسى . فان المنوِّم يستطيع مثلاً أن يقول للنائم « غداً صباحاً فى الساعة الثامنة ستمضى الى منزل فلان بشارع كذا وتضربه بسكين مطبخ تحملها معك »

وهو مثل متطرف ضربه نورداو لمثل ما صحت التجربة فيه . قال :
« ثم يفيق المنوَّم ويمضى الى سبيله وهو لا يعى شيئًا مما جرى حوله فى نومه ، وقد لا تكون له معرفة ما بفلان هذا ، ولعله أيضًا لم يمش قط بشارع كذا ، وعسى أن لا يكون قد آذى فى حياته ذبابة . ولكنه فى صباح اليوم التالى يتناول سكين المطبخ – وقد يسرقها اذا كان لا بد من ذلك للحصول عليها – ويذهب الى شارع كذا ويقرع باب فلان هذا فى الساعة الثامنة تمامًا ويوشك أن يضربه لولا أن فلانًا يكون قد أنذر من قبل بالتجربة وأحيط بها خبراً فاتخذ لها ما ينبغى من الحيطة »

وقد قلنا أن هذا مثل فيه شىء من التطرف لأن الثابت أن الايحاء لا يبلغ هذا المبلغ من القوة الا فى المرضى دون الاصحاء ، وفى الضعفاء دون الاقوياء . وواضح من هذا المثل أنه لكى يتخذ الذهن لنفسه حركات ذهن آخر ويعدى بآرائه وعواطفه وبواعث إرادته يجب ألا يكون هو مجالاً لحركات من ضرب آخر قوية أو أقوى من تلك التى يراد نقلها والاعداء بها وبعبارة أخرى ينبغى ألا يكون مجداً فى التفكير ومثال ذلك السلك المهتز الذى أشار اليه نورداو ، لا يثير فى سلك آخر مثل اهتزازاته الا إذا كان هذا الآخر ساكنًا أو ضعيف الاختلاجات . فعلى قدر ضعف الذهن يكون تأثره بحركات ذهن غيره . وعلى قدر قوته ونشاطه تكون مقاومته . على أن حركات أذهان عدة – ولو كانت ضعيفة – اذا اجتمعت وتجاوبت باحساس

واحد قد تكون أقوى من حركات ذهن واحد قوى ، ومن هنا كان تأثير الجماعة المحتشدة فى الفرد وحملها إياه على تيارها على الرغم من مغالبته لفعلها فى نفسه ، ومن هنا أيضاً تكون ضيعة العقول القوية فى المجالس النيابية وأشباهها اذا زخرت نفوس الاكثرية بعباب إحساس واحد أو متقارب

والتمثيل حين ترجعه الى الاصل، استيحاء لما يدل عليه الكلام، وقوامه إخلاء الذهن مما يشغله فى العادة واحلال الحالة النفسية التى يراد استعارتها محله أو بعبارة أخرى إنامة العواطف والخوالج والآراء الشخصية على قدر ما يستطيع المرء أن يفعل ذلك والاعتياض منها آراء وعواطف وخوالج أخرى،وتمكين هذه المستعارات من استغراق النفس باخلاء المجال لها ،وهذه أصلح الحالات النفسية للايحاء ، وهى قريبة شبه بحالة النائم نوماً مغناطيسياً حين يكون الجهازالعصبى بحيث لا تؤدى ذرات الذهن من الحركات الا أضعفها وحين تكون من أجل ذلك غير مستقرة التوازن فيسهل بأيسر باعث دفعها الى حركة يعينها نوع الباعث وقوته . فالممثل الذى يؤدى الدور مرة بعد أخرى يقع تحت تأثيرالشخصية التى يستعيرها بضع ساعات كل ليلة و يكون استعداده لتقبل الايحاء منها أقوى على التكرار كما يكون النائم أشد خضوعاً وأعظم طواعية فى يد منومه على الاعادة

وليس من الضرورى أن يكون المرء أخبر الناس بنفسه وأقلهم

خديعة فى أمرها ولولا ذلك لكان الممثلون أنفسهم أقدر على بيان الأثر الذى تخلفه أدوارهم التى يؤدونها وأعرف بمداه . ولكن المرء أسرع فى العادة الى إنكار الايحاء لتوهمه فى أول الخاطر ان الاقرار به يغض منه وإن كان متبادلاً شائعاً وكان فعله ظاهراً فى التوافه والصغائر ظهوره فى الامور الجسيمة . وكيف تفسر عدوى التثاؤب وكون كثرة المؤاكلين أشحذ لشهوة الطعام ، وما الى ذلك إذا لم تفسره بالايحاء





ليلة

من أمتع ما مر بى فى هذه الحياة ، التى لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتكرر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع . فأما الشراب فلعل القارىء أدرى به وأخبر ! وأما السماع فقلّ من شجى به كما شجيت فى ليلتى تلك ! أى والله ! وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت نفسى ، أغمض عينى وأتسمع وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجني صوت سواه ! وقد أعجب لما يُصب فى الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت بأكثر من تصوره فى ضمير الفؤاد ، وقد أغالى فى إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل ما لى — لو أن لى شيئاً ! — ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى الى انشائها الطرب العارض . ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى فى حدة « أوَ لا يسر الاسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن

نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعني أن أخول كلاً منهم مما أضفى الله عليّ من الحياة على ما فيها ، ليلةً واحدة كهذه التى نعمت فيهـا ؟ ؟ » نعم ! ولكنهم قد شماهم ظلام أوركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدرانى أنهم نعموا بمثـل هذا الصوت ؟ ؟ أمن أجل أنهم كانوا ملوكاً أو أقوى وكان لهم سلطان وبأس وبطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حليم

« راجح حلمه ، ويغوى رشيد » ؟ ؟

* * *

وكانت السماء قد جاد الأرض منهـا هاضبٌ ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلامحة ودرنا عليها نأكل ونشرب ما لا يحسب الحاسب . وأرسل كل منا نفسه على سجيتها وورد من صاحبه « غيرَ المكدر المطروق » وانبسط اليه غير باخس واجباً ثم أخذنا مجالسنا للسماع وآذننا العود « بالاحسان إيذان صادق الخبر » وأطفنا ببكر من الألحان لم يفض لها خاتم من قبل ، ثم رضينا من منظر بسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من وراء ستور الظلام .

واهاً لذاك الغنـاء من طبق   على جميع القلوب مقتـدر [1]
يملأ روحاً فؤاد سامعـه   ويصطلى حره من القرر

---

(١) الابيات لابن الرومي

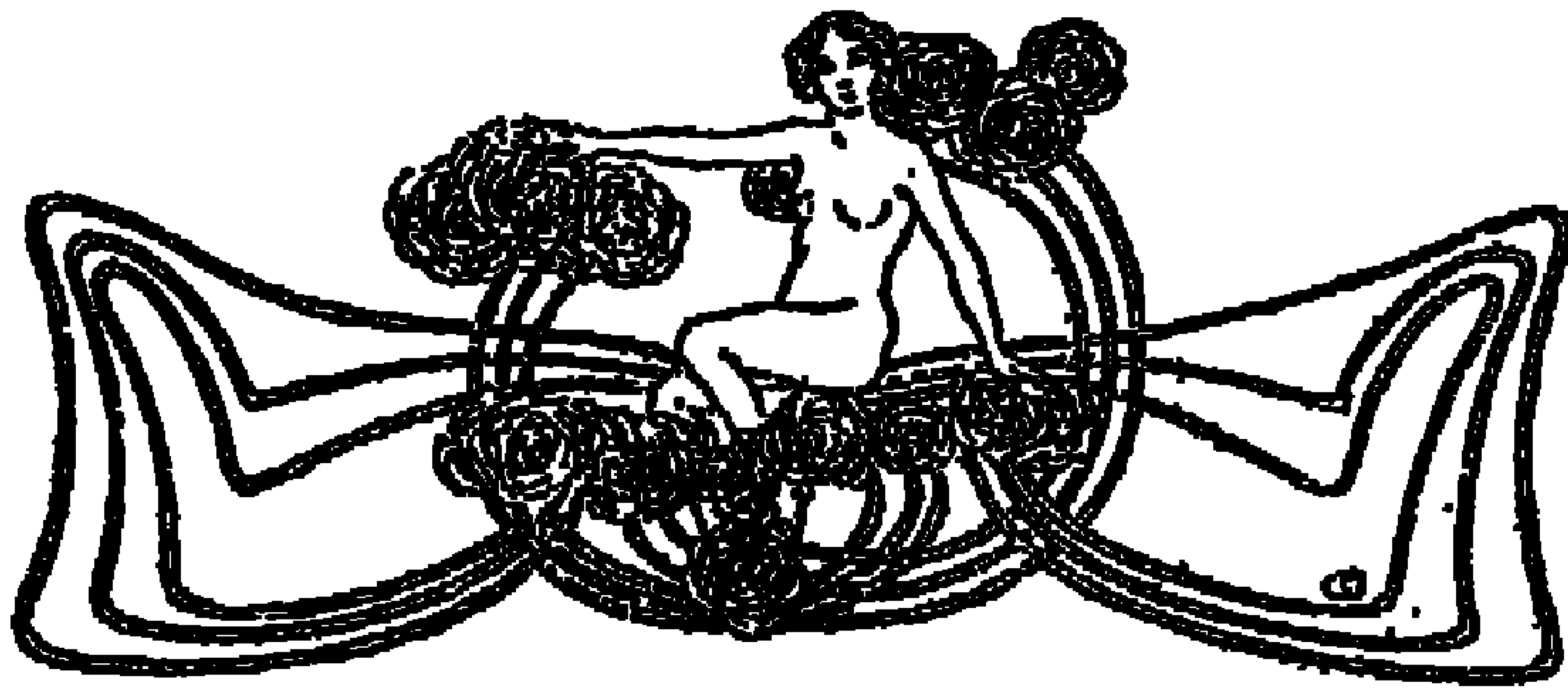
كأنه قالب لكل هوى فكلـه والمنى على قدر
لا خير فى غيره ، وهـل أمم من شارب الراح شارب السكر؟

وكأنى لم أكن أسمع بل أسقى من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها عقولنا ، ومضى الصوت على دله بتوحده يجيش نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر أمواجها ويستثير كوامنهـا ويرسم على الوجوه آثارها ، وغبت عن حاضرى برهة كررت فيها — ولا أدرى كيف ؟ — الى لحظة من الماضى المغيب الذى استقر فى زاوية مظلمة من الذاكرة ، فأبصرتنى واقفاً مرة أخرى استودع الله لى أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ وقد امتدت الكفان وتضاغتا عن أحنى عاطفة وأوجع احساس ، وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت بالتلاقى فى قبـلة حارة طويلة ، ثم تباعدت فى فزع كأنما كانت ترقبنا عين ، ولا رقيب هناك ، وثبت انسان العين بعد أن حُرمناها قبلة فيها برد العاطفة المضطرمة وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً أضاف الى ألم الحرمان سخر القدر !

وتشبثت هذه الصورة بالارتسام امام عينى وأنا أصغى إلى ذلك الغنـاء الساحر الذى يسمو الى السامعيه مبارزاً ويستكبر أن يعتصم بمساعد فيخفت حتى العود ، ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه الى الظلام !

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته فى ليـلة كانت كلها سحراً .

وردنى بعدها بغير ذى أُذن الى كل نغمة من سواه ، وغير ذى صَور إلاّ إلى فتنة من هوى فنــه وشجاه ، ولولا أن يعد ذلك جحوداً ولؤماً لتجاوزت عن ذكر اسمه فانه أحلى عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسنها النرجسى ، وأن أتصوره أبداً هوى سابحاً وروحاً هائماً وصوتاً هافياً يُشرب بالأُذن صرفاً ولا تُشغل العين بمونق زهره ، ويستريح الفؤاد الى نسيمه ويتخلى من الشجي بحب مجتهره ، ويأنس الصدر الى هديله وينجو بالقلب من حوره . فعسير على طين ابن آدم أن يُجشم احتمال الفتنتين جميعاً .



الخطابة والكتابة

زارنى مرة رجل كالعصفور ! ولست أعنى أنه صـغير فى رأى العين أو العقل ، ولـكنما أعنى أنه فى حديثه كالفزع ، لا يكاد يواقع موضوعاً حتى يتركه الى غيره ويثب عنه الى سواه ، . . وسألنى فجأة وبلا مناسـبة تقتضى ذلك : « ما هو أحسن تعريف للـكاتب ؟ » ومن عادتى حين أجالسه أن انظر الى شفتيه دون سائر وجهه ، وما رأيته قط يهم بأن يدير لسانه فى فجوة فمه الا توقعت أن يبدهنى بجديد، ففى مجلسه امتاع التنقل وفى حديثه لذة المفاجأة ولـكنه يتعب الجليس بما يكلفه من الجهد فى التماس الصلة التى فى ذهنه بين المسائل التى ليس بينها فى الظاهر أوهى علاقة. . فلما ألقى إلي سؤاله ابتسمت ودعوت الله أن يلهمنى الجواب قبـل أن يطير الى موضوع آخر ! وذكرت قصة « الجريمة والعقاب » لصاحبها دستيوفسكي ووصف السكير فيهـا وكيف كان يعب فى « الفودكا » ثم يروح ينثر الأسئلة شمالاً ويميناً ولا ينتظر الجواب ! وعجبت لهذا الصاحى الذى له طبيعة ذلك السكران ! واشتاقت نفسي أن أداعبه فقلت « أتريد جواباً لسؤالك ؟ »

قال : وهل فى ذلك شك ؟ إذن فيم أسألك ؟

قلت : فان لى شرطاً . .

قال : ماذا ؟

قلت : أن لا تطالبنى بايضاح .

فأطرق قليلا ثم رفع الى وجهاً كالدرهم المسيح ، ونظر إلي بعينين مظلمتـين كالكهفين وقال بلهجة المستسلم الى قضاء الله وقدره « قبلت . . »

فقلت ، وتكلفت السمت والوقار والجد ، وزويت مابين عينى ، وغرزت عنق بين كتفى ، كأنما أوشك أن أفضى اليه بخبر ضخم ، أو أنطق بحكم ، : « الكاتب ، يا سيدى ، هو الذى لا يكون وحده حين يكون وحده » ! !

فحملق مبهوتاً ، ثم هز رأسه يمنة و يسرة ، ونهض عن كرسيه ومد إلي يده فى صمت ، ومضى عنى حاسباً أنى أسخر منه ! وقد انقضت سنوات طويلات ، ولكن صاحبنا لا يلقانى بعدها الا صامتاً ولا يناولنى يده الا مطرقاً ولا يغتفر لى هذه الدعابة الخفيفة التى ركبته بها قديماً !

كان هذا منذ سنين كما قلت ، ولا أدرى ماذا أذكرنيه الآن ، غير أنى لا أرى اليوم فيما قلت له حينئذ شيئاً من الهزل ولا أعد كلمتى تلك التى أسخطته الا جداً صرفاً وان لم أكن أعنى ماأعنى الآن ، فقد

صارت الدنيا فى نظرى مدرسة حقيقية سوى انها سخيفة ! يتلقى المرء دروسه فيها حين يكون بين الناس سابحاً معهم على متن الحياة يصارع أمواجها و يغالب أثباجها ، حتى اذا كر الى الشاطىء وارتمى على رماله ليريح أعضاءه و يستجم لخوض العباب مرة أخرى شرع يفكر فيما لقيه و يجيل نظره فيه كالتلميذ ، بعد اذ ينصرف عن المدرسة ، يقلب صفحات كتبه ودفاتره ليستظهر ما فيها و يثبته فى ذاكرته ، ولكنها كما قلت مدرسة سخيفة يقضى فيها المرء حياته ليتعلم كيف يعيش ، وتتصرم أيامه وهو لم يحذق الدرس ولم يفز بالجائزة !

ولا شك عندى فى أنه لا خير فيمن يحس حين يكون وحده أن حوله فراغاً . ألا يهتف به هاتف أو يطوف به طائف من ماض ؟ أو ينجم فى سماء نفسه نجم من أمل أوفكرة أو خاطر أو خيال ؟ ؟ انه إذن ليس سوى طفل كبير كل حيويته فى أعضائه . فلندعه يبحث عن ترب له يلاعبه !

كان « بيكون » رحمه الله ، أو صنع به ما شاء ، يقول « ان بعض العقول ملائم لما يمكن إرساله دفعة واحدة أو فى زمن وجيز ، والبعض يخلق مناسباً لما يبدأ بعيداً ولا ينال الا بالسعى الطويل » والطراز الأول هو طراز المحدثين والخطباء ، والثانى نمط الكتاب . ولقد سمعت فى حياتى خطباء كثيرين لا يزال بعضهم ينعم بالحياة و بحنجرته ، ولكن أقواهم وأعلاهم لساناً وأبلغهم تأثيراً كان كالطبول التى قالت القردة عنها فيما روى ابن المقفع فى كليلة ودمنة «لعل أفشل

الاشياء أضخمها صوتاً » وكان يخيل لى إذ أسمعه يخطب الجماهير كأن فى وجهه زوبعة ثائرة أو بركاناً فائراً ، وكأنه حين كان ينهض ليتكلم « بلاس » الذى حدثتنا الاساطير أنه خرج من رأس « جوبيتر » شاكياً مستعداً تام السلاح . وكان كلما مضى فى كلامه يعلو ويبهر كالنار المندلعة ، ويقنع السامعين ، لا بالحجة والبرهان ، بل بقوة انتفاء شكه فى نفسه ، وكان يجزم ولا يتردد ، ، ويبت ولا يتلعثم ، ويقرر ولا يناقش ، ويعد ماشاء أقضية مفروغاً منها ومسلماً بها ، وينزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو ايماءة أو ابتسامة أو دقة على المنضدة ، وكانما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافر وأنياب حداد تمزق الظلم الذى قام متمرداً عليه وتبعثر أشلاءه للوحوش والكلاب ، واذا ذكر بلاده وفجائعها خلته « أنطونيوس » واقفاً على جثة « قيصر » ليدفع حجارة رومية الى الثورة والانتقاض ، وكانت عينه تلتمع بنور الوطنية ، وصدره يعلو ويهبط جائشاً بالعواطف العامة كالعباب الزاخر . . . ثم كنت أتلو خطبته فى المساء أو الصباح فأعجب لتفهها وفراغها وخلوها من كل روعة أو جمال وأكاد أقول انها غير ما سمعت أذناى منه . لانهـا ليست سوى الرماد الذى صارت اليه النار التى كانت تزغرد فى مسمعي ولأن الاشارات القوية ليست هنا ، ولا الصوت الفاتن الذى يسحر المرء عن نفسه ، ولا النظرات الموحية ولا الوقفة الناطقة ولا الجماعة المتعاطفة المعدية

ولعل أقوى الخطباء فعلاً فى نفوس الجماهير وأبلغهم تأثيراً

لا يكون الا أشبههم بها وأقربهم اليها وأقدرهم لذلك على النزول الى مستواها ، وليس فى وسع الخطيب اذا شاء أن يبلغ من السامعين مايشتهى ، أن يجاوز السطوح أو يهوى الى الاعماق و يطلب الاغوار ، والا جاوز محيطهم وحلق فوقهم وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به .وتأمل ما تظنه أقوى خطبة سمعتها وقل لى من أى شىء تراها مبنية ؟ أليس قوامها الالفاظ المبتذلة والعبارات المذالة وما ألفت الجماهير أن تسمع وتتأثر به وتنفعل له ؟ وهذه المبتذلات أفعل بألباب الجماهير لأنها لا تكلفهم مشقة ولاتدعهم حيارى ولاتتركهم فاغرين أفواههم كالبلهاء، ولا يحول دون وقوعها فى نفوسهم حائل من تعويص أو عمق أو دقة أو سمو خيال أو لطف تصور ، ولأنها تحرك المزاج العام وتشبه ولا تصدمه ،ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجة الى العمق أو الابتكار وكلما كان أدنى الى طبقة الاوساط العاديين كان هذا خيراً له ولهم وأجدى عليه وعليهم فان حائك الجيش كما يقول « نورداو »لايفصل ثيابه على قد جندى ممشوق القوام من معارفه بل على الطول المتوسط ويقول نورداو ، وليس أصدق مما يقول ، « تصور أربعمائة من طراز جويته ، وكانت ، وهلمهولتز ، وشكسبير ، ونيوتن ، واضرابهم محشودين فى مكان واحد ليبحثوا شأناً عملياً و يبدوا آراءهم فيه ؟ قد تختلف خطبهم عن الخطب التى تلقى فى المجالس النيابية — وحتى هذا مشكوك فيه — ولكن ما يخلصون اليه من النتائج ويتفقون عليه لا يتعرض لمثل هذا الاختلاف . فلماذا ؟ لا لسبب

سوى أن كلا منهم — فضلا عن خصائصه التى تفرده وتكسبه شخصيته الممتازة — قد ورث خصائص الجنس التى يشاركه فيها ، لا زملاؤه المحشودون معه وحدهم ، بل كل نكرة من نكرات الشوارع أيضاً — وتقول بعبارة أخرى أن بين الناس العاديين شيئاً مشتركا لا تكاد تتفاوت قيمته نرمز له بهذا الحرف « ا » وأن الافراد الممتازين يجمعون بين هذا المشترك وشىء آخر خاص يختلف باختلافهم وينبغى أن نرمز له بحرف مختلف فى كل حالة مثل « ب » و « ج » و « د » الخ . والآن فلنفرض أن اربعمائة من العبقريين اجتمعوا فان النتيجة اللازمة تكون أن يجتمع عندنا أربعمائة « ا » وباء واحدة وجيم واحدة ودال واحدة وهكذا . فلا يسفر ذلك الا عن أمر واحد هو أن تحرز الالفات الاربعماية نصراً مبيناً على الباءات والجيمات والدالات المفردة أى أن ما هو مشترك بين الجماعة يتغلب على ما هو من الخصائص اليتيمة التي لم تُتأم . ولقد تعلمنا منذ زمان بعيد فى المدارس أن المختلفات لا تقبل الجمع ، وهذا فى الواقع هو السبب فى أن من الممكن أن نتصور مجتمعاً من الافراد العاديين لا من الآحاد النوابغ . ومن المستطاع — اذا طرحت الامر للتصويت — أن تحصل على رأى أغلبية فى مذاق توابل الكرنب ! أما فى قيمة نظريات الحياة فلا سبيل الى ذلك . والارجح فى الاحتمال — اذا أُحصيت الاصوات على هذه النظريات — أن تفوز كل نظرية بصوت واحد هو صوت صاحبها !! »

ولكن للكاتب شأناً مختلفاً جداً . عليه أن ينضج ما يريد أن يفضي الينا به و يطلعنا عليه والا كان لا شيء . والوقت أمامه فسيح لتلمس المواد وللعبارة عما يدور فى خاطره و يتمثل لخياله ، والقراء مستعدون أن ينتظروا و يصبروا حتى يهتدى الى ما يبغى و يوفق الى ما يشتهى ، وهو مطالب بأن يؤدى ولا يمطل دينه للحقيقة وللطبيعة . اذ كان لا يخاطب نفوس الجماعة المتعاطفة بل عقل الفرد ، والناس ينظرون اليه نظر التلميذ الى المعلم لا الظهير الى الظهير . فمن حقهم أن يتقاضوه الدقة والعمق وموافقة الصواب وتحرى الحقيقة وحسن البيان وعلو اللسان وأن يكشف لهم عما أفاده الدرس والتحصيل والنظر وما ذخر على الايام من كنوز الفكر وأن ينصف نفسه وعقله ومواهبه وان يجيل لحظه فى سماء فكره لا فى وجوه الجماهير . وليس ما يطلبه الكاتب على طرف اللسان أو حد القلم بل هو ملفوف فى طيات القلب ومنقوش على صفحات العقل طبقة فوقها طبقة ودونها طبقة يرفعها الخيال والفكر واحدة اثر اخرى و يلتمس لها العبارة التى تجلوها فى أحسن حلاها وأقواها .

وعسى من يقول : ولكن للخطيب مشجعاً كافياً من ثناء الناس عليه فى وجهه وتصفيقهم له وما يراه من الموافقة ويحسه من القبول وما يشهد من قدرته على حمل الناس على رأيه وليس كذلك الكاتب المسكين الذى يسهر الليل لمن ينامون عنه ويكد قريحته للناعمين بالراحة . فنقول نعم يلقى الخطيب من يصفق له و يهتف ، و يدخل

السرور على نفسه أن يلمس أثر كلامه ويحس وقعه ويشهد ذلك بعينيه وبكل جارحة فيه . ولا شك أن الكاتب قد حرم هذا وما يجرى مجراه . غير ان هذا لا يضيره وبحسبه من التشجيع أنه أمين وفى للحقيقة والطبيعة وانه قوة يحسها من نفسه ويحسها الناس منه

ولقد كان هو قارئاً قبل أن يكون كاتباً وليس يخفى عليه ولا من الغريب عنه ما يجده القارىء من المتعة وما يفيده من الغبطة . والخطابة فن أجوف اذا اعتبرت القيمة الحقيقية للكلام لا التأثير الذى تحدثه والوقع الذى يكون لها فمن حقها أن يكون الجزاء عليها التصفيق الوقتى وما اليه من الاعراض الزائلة . وفن الكتابة أسمى وأجل فجزاؤه من جنسه معنى سام لا مظهر خشن عامى





سر غرفة ؟؟

أم وحي صورة ؟؟

لا أدرى أحلم هو أم حقيقة ، ولكني سأقصه على القراء وأكل الفصل اليهم ، وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك مني أنا الذى أعيش بين الاشباح والطيوف ، وأغدو وأروح فى حاشية منها ، وأستوحش اذا افتقدتها فأزورها وأستثيرها من مراقدها وأحف نفسى بها وأنقاد لها واعاطيها التذكر والحديث حتى ننثنى جميعاً « كأنا قد تعاطينا المداما » ولكل واحد من الناس حياته الخاصة يا سيدى القارىء : لك مجالس انسك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك صاعداً ونازلا على جانبى المقياس ، ولى أشباحى لا أرتاح الا اليهـا ، ولا أرسل نفسى على سجيتها الا معها ، ولا تخلص أنفاسى الا بينها ، ولا أستعذب سوى حديثها وان كان مثله من غيرها حقيقاً بأن يثير الكبرياء ويكوى الغرور من فرط الازراء ، ولكم قالت لى ، وأنا اخبط فى الصحراء معها ، « أتعرف هذا الوجه الذى يطالعك من الظلام ؟ » فانظر الى حيث تشير فلا تأخذ عينى شيئاً غير الظلمة الدامسة فتقول

لى « لا تحول نظرك عنه تستوضحه » فأغرز عصاى فى الرمل وأتكىء عليها وأرسل لحظى الى حيث تومىء فيرتفع مثل الاستار واحداً بعد واحد عن وجه لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره وأثنى اليها الرأس سائلا عن صاحبه فتقهقه وتجلجل ضحكتها فى الفضاء وتقول « كيف لا تعرفه ؟ » فأعجب لانكارها عجزى عن تذكر وجه كالصورة الميتة ليس فيه ما يحرك الخاطر أو يناز به من المعارف عن مئات الالوف من أمثاله ، فتنطقه لى فلا أزداد به الا جهالة وله الا انكاراً ، فتبسم ابتسامة السحر وتقول « لقد كنا نحسبه أشبه الناس بك ! ولكن دعنا من هذا ولنتركه للظلام يحتويه فما هو بأهل لغير ذلك ! »

* * *

والآن الى القصة ، اذا جاز أن تسمى كذلك ! . .

أقمت على ساحل بحر الروم أياماً ، وفى احدى الليالى أبت الى غرفتى فى ساعة متأخرة وقد أدارت رأسى مناظر الدنيا على ساحله ! ومن حقها ان تفعل ذلك بابن الصحراء وساكنها ! وكان الليل عاتيا

كأن شياطين الدجى فى أهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب

ففتحت النافذة وجلست أصغى الى صوت البحر الجائش واستنشى ريحه ، فدخلت علىّ بلا استئذان غادة فى حفل من الزينة دخول من هذا مكانه . ونزعت قبعتها والقتها على منضدة هناك وأقبلت على المرآة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها وتلوى خصله الذهبية

حول اذنيها وتفرقه على جانبي جبينها وهى تقول اذ تنظر الى نفسها بادية فى صقال المرآة من قريب ومن بعيد وتصعد طرفها الى صدرها وثدييها الناهدين الراسخين ونحرها الذى يضيئه عقد من اللؤلؤ ، وتصو به الى قدميها الصغيرتين وتكشف عن ساقها فى جورب بلون الجلد « من مبلغه انى هنا الساعة ؟ ! اني أتعقبه حيث يكون من الارض ولا أدعه يفلت منى ، وقـد أ كون أدنى شيء اليه وهو لا يدرى — الى مباءات الحالمين ، وتحت الاشجار التى لا يعشش فيها غير البوم ، والى سيف البحر حيث اللج يرمى بالزبد — ولكنى ، مع الاسف لا أستطيع أن أناديه أو أدعوه أو اسمعه صوتى أو أشعره بوجودي وان كنت منه كظله ! ! وقد يناجينى فيروى سمعى بنجواه و يطلعنى على ما كنت أجهل وما كان يطو يه عنى جهده و يكاتمنيه ما وسعه الكتمان ، فأعجز عن جوابه اذ كنت لا أملك غير الاصغاء ! فياليت من يبلغه عنى ذلك ليعلم أنى ما زلت على وفائى الذى الزمنيه والذى لم أندم عليه ! ولن تبرح مخيلتى قط تلك الليلة التى طال فيها بيننا الحوار وكاد يفضى الى شر حال ، وكيف نهض عن كرسيه « هـذا » وأنا قاعدة على سريرى ، وحدق فى عينى وأومأ الى بسبابته وقال « ستفنين لى على رغم أنفك هذا (وغرزت اصبعها فى المرآة) أتفهمين ؟ » فدفنت وجهى بين كفى وانطلقت أبكى فما عبأ بي شيئاً ! فياما كان أقساه فى تلك الليلة ! ولما طال الامر ولم تجف عبراتى صاح بى بصوت قوى « خير لك أن تنتهى عن هذه الحماقة.

التي لن تغنى عنك شيئًا ولقد صارحتك بعزمى ولو تقل هذا البحر بالغرابيل ما تحولت عنه. وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوساوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطفيلية ، ولو انتزعت معها أصول أحشائك ! وسترين أنى فاعل — بسوطى هذا وذراعى هذه ، اذا احتاج الامر الى هذين ! » وقد فعل . . ولكني ذويت . . ذويت . . حتى صرت الى ما أرى ! »

وتراجعت عن المرآة ووجهها اليها ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت الى السرير فارتمت عليه برهه حدثتنى النفس فى خلالها أن ألوذ بالفرار ! والحق اقول إنى خفت جداً ! ولكنى جمدت مكانى ولم أستطع حراكا حتى لكأنى استحلت بعض ما فى الغرفة من أثاث !

ثم اعتدلت كالمفيق من غشية وجعلت تجيل عينيها فى الغرفة وتنفض كل ما فيها . غير انها كانت نظرة من لا يكاد يرى . وعادت الى الكلام بصوت مخنوق هاف أيقنت منه انى فى أمان !

« نعم كانت ليلة داجية كهذه . عاصفة الرياح مثلها . وكنا ضجيعين على هذا الفراش . غير انى كنت لا أنفك أفلت من عناقه وأشيح بوجهى عنه كلما أهوى الى بفمه وأمنحه جانب محياى دون صفحته . وأتقى أن تلتقى عيوننا أو أتلقى أنفاسه الحارة بغير خدى . وأعيته الملاطفة وحز فى نفسه فتورى فاعتمد على كوعه وهو مستلق الى جانبي وألح على يستخبرنى عما بى وعن علة ما كان باديًا على من

الزهادة والسآمة و يسألني ما لجفوني قد جفاها الغمض و يقول « ماذا يجول فى هذا الرأس الصغير ؟ أى هم يقض مضجعك ؟ »

فأقول مرائية « كيف يستضيفني الهم وأنا الى جانبك ؟ »

فيقول« أتراني أخلفت لك وعداً أو أسأت بكلمة أو اشارة ؟ لقد نحيت عنك ذراعى فى جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه ؟ أتراك نادمة على زواجنا ؟ أم فاتك من هو خير مني وأحب ؟ أم خاب لك أمل أم ماذا ؟ قولى بالله ؟ صار حينى ! لا تخشى شيئاً ! دعى هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفرجان ! »

فأطبقت جفونى حتى لا أراه . ووضعت ذراعى على جبينى لا كثف الستر بينى و بينه ولبثت هكذا لا أنبس بحرف كالذى يريد أن يستغرقه حلمه — نعم كنت أحلم ولكن بغيره — واأسفاه ! بذاك الذى أقسمت له وأنا بين ذراعيه . وفمه على شفتى يوسعهما لثماً أن لا أساكن سواه أوأبادل غيره القبلات حتى الممات. والذىلا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج ! . . . فهممت أن أقول له « اسمع يا صاحبى ! انك زوجى . . . لا انكر ذلك ، ولو انكرته لما أجدانى الانكار شيئاً ، ولكنه كان لى صاحب — أو حبيب اذا شئت وأبيت إلا أن تسمى الاشياء أسماءها كيفما كانت — وهوممن خلقوا ليعشقوا، ولا تكاد تراه حتى تتعلقه وتهواه ، ولكنه فقير لا يملك أن يبلغنى من الدنيا مناى ، وليس يخفى عليه أنى مخلوقة لنعيم الغنى لا لخشونة الفقر وذلة الفاقة ومراقمها ، وأن صبرى على الاقتارعسى أن يكونعسيراً ،

فجعلت من أجله أدافع الخطاب عن نفسى وأتجنى وأبدى الزهادة في حياة الزواج ، وأرفض الرجال وأنت فى جملتهم ! حتى انتهرنى أهلى واستحمقونى وأشبعونى لوماً وتقريعاً فقبلتك بعلاً . . . اتظن انك لا تعرف صاحبي هذا ؟ ؟ بلى تعرفه ! ومن تراك تعرف اذا جهلته ؟ ؟ ولقدعاد منذ قليل بملء جيوبه ذهباً وهو يحسب أن قد ساعفته الايام على بلوغ أربه ولا يدرى انه آب بعد الاوان ! . . وان من حقه ان اكون له دونك ، وقد كتب إلي يتقاضانى الوفاء الذى اقسمت له عليه فألهب كتابه النار التى كنت اخالهـا قد خبت . . وماذا عليك لو تركتني له ؟ القني له ولو كالعظمة ان شئت ! وانت امرؤ لا يرى الدنيا الا سوقاً تفسدها العواطف . وقد شاء ربك ان يرد قلبي اليه ويحفظه عليه ولست بقادر ، مهما تصنع ، ان تعترض قضاء الله او تحول دون مشيئته ، ولخير لك أن ترمى إلي بزمامى . ولأن تدعني جاهلاً ما كان من امرنا افضل من ان تبقيني فتعلم مانطويه عنك... نعم فقد راينا ان الزواج لا سبيل اليه بعد ان بنيت انت بى ، فتوافينا الى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاهدنا ان نكون زوجين واشهدنا على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح . وانه لعقد لا يعترف به الناس غير انه مع ذلك صحيح فيما بيننا ، ولأن يكون هو زوجي وعقيدى اولى من ان تكونهما انت ! ! ولا نكران أن الامر كان موكولاً الى اختيارى وانى آثرتك عليه امام الناس ولكن هـذا كان لا مندوحة عنه ولابد منه . وهل كنت تتوقع منى غير هذا فى سبيل

التحفظ بشرفي ؟؟ نعم شرفي ! ولست بأول انثى اتخذت من الزواج ستاراً لحنينها !! . . ولا يخفى علي انى من اجل هـذا استحق اللعنة ولكني كنت مضطرة اليه اضطراراً . . فأنت ترى أن كل شيء يدعوك الى تركى واطلاقى اليه . . »

هممت بأن اكاشفه بهذا ولكن شيئاً عقـد لسانى والجم فمي ، فمنحته ظهرى واستقبلت الحائط . وكأنما مل طول صمتي وآلمه انصرافى عنه واستدبارى إياه كلما حاول ان يتألفني من نفرتى فجذبني اليه بعنف اولعـله لم يعنف ولكن ما كانت تجيش به نفسي جسم لى الأمر فهاج هائجي واضطرم صدرى وثرت به ارجمه بكلام لا املك حبس لسانى عنه واقول له فيما اقول

« انى ابغضك . . امقتك من اخمص قدمى الى فرع راسى ! »

قال : « ماذا تقولين ؟ » واعتدل فوق الفراش

قلت: « لقد قلتها ! الم تسمع ؟ لقد كان غيرك اولى بي لو انصفت المقادير !! »

فوثب عن السرير الى قدميه كالنمر الهائج وجذبني اليه من شعرى وصاح بي بصوت وحشي اشاع الرعب فى كيانى « من غيرى هذا ؟ افصحي ايتها اللعينة ! »

فلم استطع جواباً وعقد الخوف والالم لسانى وانا جاثية عنـد قدميه وخصـل شعرى ملفوفة على يمينه ، وشماله على جبيني يرفع بها وجهي الى عينيه ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك ثم شد شعرى

وقال « انهضى » ودفعني الى السرير « اسمعي ! لن اقتلك فأنت اهون من ذلك وعندى ما هو شر من القتـل . فاعلمى انى لست كغيرى من الرجال ! انك زوجتى « انا » – وعض هذه الكلمة – وستظلين زوجتى « انا » رضيت ام سخطت ! ولست اعبأ شيئاً بالناس وما عسى ان يقولوا . ويميناً ليس عندى لك سوى السوط امزق به جلدك واطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن ان يعشش فيه من الاباطيل ولأطعمنك اياه كلما أجاعتك اليه الاهواء السخيفة»

فبكيت وسرت فى بدني كرعدة الحمى وتصاكت اسنانى فصاح بى ان « ازجرى عينك عن البكاء فلست ممن تلينهم الدموع او تخدعهم ! ويظهرأنك تغفلتني أوكنت تحدثين نفسك بتغفلي.وسألقى عليك درساً يؤدبك غير هذا الأدب »

فلم اجبه وظهرت على وجهي وهيئتى أمارات الاستخذاء والضراعة ولم يتركني حتى اقسمت له ان اصدقه الولاء وأمحضه الوفاء .

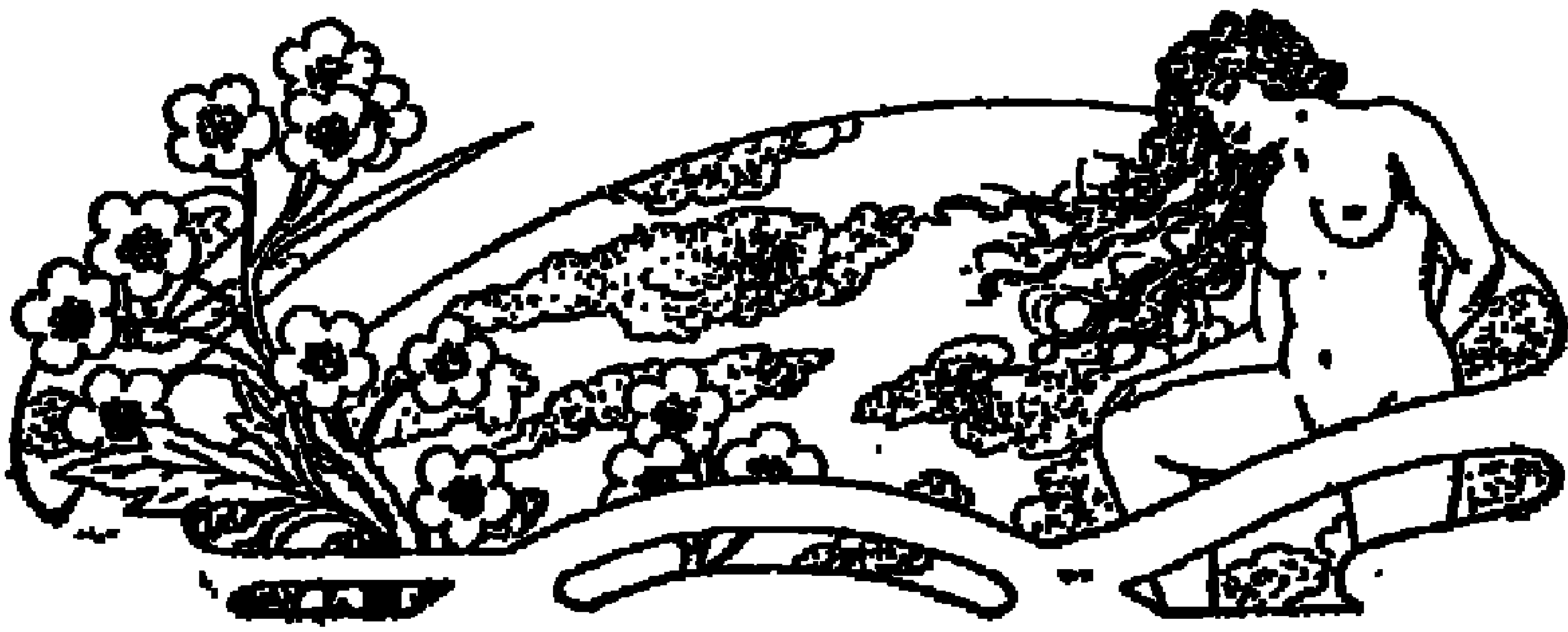
ثم نهضت الى المرآة مرة اخرى وهى تقول « وقد اخلصت . . وحمد لي اخلاصى وتبنى غلام صاحبى ولكني صرت الى ما أرى !.. وقد اسمعه احياناً يهتف بى مناجياً « أيتها المرأة التى أفتقدها ! من لي بأن أراك كما كنت تبدين لى ! الشد ما اتعثر الآن فى سيرى بعدك ! وما اكثر ما يتساقط حولى من اوراق الحياة وازاهيرها ! » ولكني لا استطيع ان اجيبه حين يهيب بى وان كنت اتبع له من ظله . »

* * *

وتقشعت السحب عن القمر فنفذ الى الغرفة نوره فرفعت طرفى اليه ثم ثنيتــه اليها فاذا بالفتاة قد غابت ! . . ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال . . فخطر لى ان اعالج الباب لانظر أمفتوح هو أم مغلق وان ارى ماذا فى الدولاب وتحت السرير ! ولكني استحييت من نفسى ! واشعلت سيجارة وجعلت ادخنها رائحاً غادياً فى الغرفة حتى اذا قاربت الانتهاء منهـا الفيتني واقفاً اتأمل صورة حسناء ! ! فابتسمت وقلت : « اهذا انت يا فتاتى ؟ ؟ كيف خرجت من إطارك هذا بالله عليك ؟ ؟ لشدما ازعجتنى يا سيدتى ! فما جزاء من يعابث ضيوفه على هذا النحو ؟ ؟ ان اواريك عن عيني ! نعم ! »

وقلبت الصورة وادرتُ وجهها الى الحائط وقلت وانا اتمطى على الفراش .

الآن استطيع ان انام فى امان من خيالاتك ايتهـا الحسناء الماكرة !



متاعب الطريق

ليس أخطر من التعميم في الاحكام ، ولا سيما اذا كان الامر خارجاً عن دائرة العلوم المضبوطة وخاصاً بما يختلف فيه الناس ويتباينون ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نستغنى عن الاحتياط الى مدى بعيد ، وأن نأمن الخطأ الى حد كبير حين نقول ان المرء حين يعشق ، أى حين تستبد به الرغبة وتطغى به العاطفة ، قل أن يفكر فى الاحتمالات أو فرص النجاح ، أو فى ما له من الصفات والمؤهلات التى تعين على التوفيق أو تحول دونه أو فى طبيعة المرأة التى فتنته واستولت على هواه . ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدره بالرغبة فيها وتضطرم نفسه عليها ويغيم كل ما عدا ذلك فلا يرى أو يسمع أو يحس الا هذه العاطفة المتأججة التى تسد عليه كل فجاج النظر . وغير منكور أن فى الناس من يسعه ضبط نفسه وقياس آماله الى قوته وكبح عاطفته اذا تبين أنها موشكة أن تركض به بين الوعور، كما أن فيهم من يمضى على وجهه كالمعصوب العينين أو كالمخمور حتى

ينتهى الى غايته أو يقع دونها ، ولكن هذا لا ينفى أن العاطفة تملكه قبل التفكير وهـذا هو الذى نريد أن ننبه اليه لو أن الامر محتاج الى تنبيه

والاديب شبيه بالعاشق ، يعرض له الخاطر فيستهويه ويسحره ولا يجري فى باله فى أول الأمر شيء من المصاعب والعوائق ولا يتمثل له سوى فكرته التى اكتظت بهـا شعاب نفسه ، ولا ينظر الا الى الغاية دون المذاهب ، ويشيع فى كيانه الاحساس بالأثر الذى سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعاً ولا يندر أن يتوهم انه ليس عليه الا أن يتناول القـلم فاذا به يجرى أسرع من خاطره ، واذا بالكتاب تتوالى فصوله وتتعاقب أبوابه ، وتصف حروفه ويطبع ويغلف ويباع. ويقبـل عليه الناس يلتهمونه وهم جذلون دهشون معجبون . واذا بصاحبه قد طبق ذكره الخافقـين وسار مسير الشمس فى الشرق والغرب وخلد فى الدنيا الى ماشاء الله !! يكبر كل هـذا فى وهمه لحظة تطول أو تقصر ثم يهم بالعمل ويعالج أداءه فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة ويتقصى النظرة ويلم بهذا ويعرج على ذاك ، ويستطرد الى هنا ويمضى الى هناك ، ويدخل شيئاً ويخرج خلافه ، ثم أن يصب ذلك فى قوالب ملائمة ينبغى أن يعني بانتقائها،وان يتوخى في الأداء ضرورات تقسره عليهـا طبيعة الخواطر او المسائل — هذه تتطلب ايضاحاً وتلك لا معدى فى سوقها عن تحرى القوة فى العبارة اواللين او السهولة او الجمال او غير ذلك . وأحر به حين يكابد كل ذلك

ان تفتر حرارته الاولى وان يدب الملل فى نفسه ، وان يضجره أن يضطر ان يقطع الطريق خطوة خطوة ، ويكتب الفكرة الرائعة الجليلة التى استغرقته وفتنته ، كلمة كلمة ، ويتناول منها جانباً بعد جانب ، وان يعانى فى اثناء ذلك مشقات التعبير ومتاعب الاداء ، وان يذعن لاحكام الضرورات ، فلا يستعجل فيفسد الأمر عليه ، بل يكر احياناً الى ما كتب ويعيد فيه نظره ويجيل قلمه مرة واخرى وثالثة اذا احتاج الأمر الى ثانية او ثالثة ، ويصبر على برح ذلك وعنائه وتنغيصه وتغثيته يوماً وآخر ، واسبوعاً وثانياً، وشهراً وعاماً وأكثر من عام أو أعوام اذا دعت الحال . وفى اثناء ذلك كم خالجة عزيزة يضطر ان ينزل عنها ويدعها مدفونة فى طيات نفسه لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وابرازها فى الثوب الذى ينسجم عليها ويجلوها للقارىء كما هى فى ذهنه أو لأن كلمة واحدة — واحدة لا أكثر — تنقصها لتستوفى حقها من التعبير الذى يكفل لها الوضوح أو الحياة ؟ كم معنى يتركه ناقصاً أو غامضاً وهو «يحسه» تاماً ويتصوره فى ضميره كاجلى ما يكون ؟ وما كل امرىء يدخل فى مقدوره أن يحتمل هذا المضض كله . ومن الكتاب من لا يكاد يلتقى بأول صخرة فى الطريق حتى ينكص راجعاً وهو يشعر بمرارة الخيبة بعد الغبطة التامة التى أفادته إياها الفكرة حينما نشأت ، ويروح يطير من فكرة الى أخرى ولا يكاد يصنع شيئاً . لان العوائق التى لم يقدرها تغلبه ، والوعور التى لم يتوقعها تهيضه ، والمشقات التى لم يفكر فيها تسئمه .

والأدب إلهام وفن . ولكل فن أدواته وآلاته ، ولا بد فيه من الاحسان والتجويد ، أي من الصبر وصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة وحسن الاستعداد ، وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الاحساس وحسن التخيل والقدرة على ذاك وغيره بمقصورة على الادباء ولا هي بوقف عليهم ، ولكن كم ممن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والاحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ويحدثوا فيها صوراً ويجلوها للناس كما هي فى نفوسهم ؟ ؟ الالفاظ ، التي هى أدوات الكتابة ، موجودة ولعل غير الاديب لها أحفظ وبها أعلم ، وهى فى طريق من شاء ، غير أنها ليست كل ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب. كذلك الاصباغ والالوان حاضرة من شاء مد اليها يده وتناولها وصنع بها ما أحب ، وهى مادة التصوير ، ولكن من ذا الذى يحسب أنها كل ما ينقص المرء ليكون مصوراً ؟ وكذلك لا يغني العلم بالقواعد والاصول . وما عسى أن تكون قيمتها وحدها ؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه وينقل الى اللوح ما يترقرق فى صفحته من المعانى ويجول فيه من الأمواه ، فكيف بذلك ؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، أو تقويسة الذقن معبرة عن التصميم ، أو لمعة العين شاهدة بسجاحة الخلق ورضى النفس ؟ وكيف يشعرك ما يشعر به هو من السحر أو الدلال ، أو القوة والجلال . ويفيدك ما أفاد من الانس والغبطة والروح ؟ او كيف يجعلك حين تنظر الى الصورة الحاكية تشتهى — مثله حين يجتلى

الأصل — أن تغمض عينيك وتنقل نفسك الى عالم آخر من الخيالات والخواطر والاحساسات ؟ وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر . والأمر فى كلتا الحالتين يحتاج الى فطرة مهيأة له أسبابها وذوق مؤازر وسليقة مناصرة وملكة معينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بافراغ الخواطر فى القوالب الملائمة ، والقادرة علي إحداث الصور المطلوبة فى أذهان القراء . وعلى ذلك يكون المرء صانعاً لا أكثر اذا رزق الفن وحرم الالهام — صانعاً كهذه الآلات التى تدور بلا روح وتخرج ألواناً وضروباً من الصور تعجب بصقلها ودقتها واحكام صنعها ولا تحس أن يد انسان حي أو قلبه وراءها.

وكم من الناس يفكرون فيما يقاسيه الأديب ؟ ؟ أين ذاك الذى يطالع الكتاب أو الديوان ويعنى بأن يصور لنفسه الجهد الذى بذله صاحبه والغصص التي تكبدها وصبر عليها — جهد التفكير والأداء ، وغصص النجاح والفشل على السواء ؟ ؟ انه لا يقــدر ذلك الا من عانى هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها. وشبيه بهذا أن يقف رجل من الأوساط العاديين أمام صورة يتأملها ويدير فيها عينه ويعجب بها أو لا يعجب ، وهو لا يدرى أنها ليست ألواناً وأصباغاً مزجها المصور وزاوج بينها وساوقها بل قطعة حية من نفسه اذا نظر اليها صاحبها كرت أمام عينه سلسلة طويلة من الالم واللذة والنــدم والغبطة والغيظ والكمد والسخط والرضي والأمل والخيبة ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة .

لى صـديق مصور مخلص لفنه دعانى مرة الى محله — وكان هذا منـذ سنوات ثلاث— وقال «انى اريد ان ارسمك لانى أتوسم فى رأسك مادة صالحة لصورة لها قيمة فنية» فشكرت له ذلك وقلت له ان عنـدى من الغرور ما هو فوق الكفاية ولم يكن ينقصني أن أعلم من فنان مثلك أن رأسى جدير بالتصوير، ثم جعلت اختلف الى داره فى الاوقات التى يعينها وأجلس اليه فى كل يوم من هذه الأيام نحو نصف ساعة تتخللها فترات أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة. فكان ربما بدأ مرتاحاً الى العمل مقبـلاً عليه مهتماً ثم لا يلبث ان تعـتريه الكآبة ويعلو وجهه الوجوم فتتدلى يداه وينثني رأسه على صدره ثم يرفعـه ويرسل زفرة غيظ من بين أسنانه المطبقة ويعود كالذى يهم أن يتناول اللوح فيمزقه ويعمـد إلي فيرمى رأسى بالكراسى والألواح ويطردنى رفساً بقدميـه !! وكنت أحاول أن أرد اليه ما يعزب عنه فى هـذه اللحظات من خلقه الوادع وأقول له ان هـذا الذى تكابد ليس بغريب عنا معشر الكتاب وربما كنا أسوأ من المصورين حالاً وكان فننا أشق وأمر فيقول كلا! انكم أيها الكتاب تستطيعون أن تسوقوا خواطركم ومعانيكم واحـداً فى أثر واحد فان أغفلتم معنى لسبب من الأسباب فقلما يفطن القارىء الى ما أهملتم،وهل كان يدري قبل أن يقرأ كلامكم انه كان فى رؤوسكم كذا وكذا فأوردتم منه هـذا واطرحتم ذاك؟ ولكن صورة الوجه على اللوح اما أن تكون حية ناطقة أو ميتة خامدة الروح

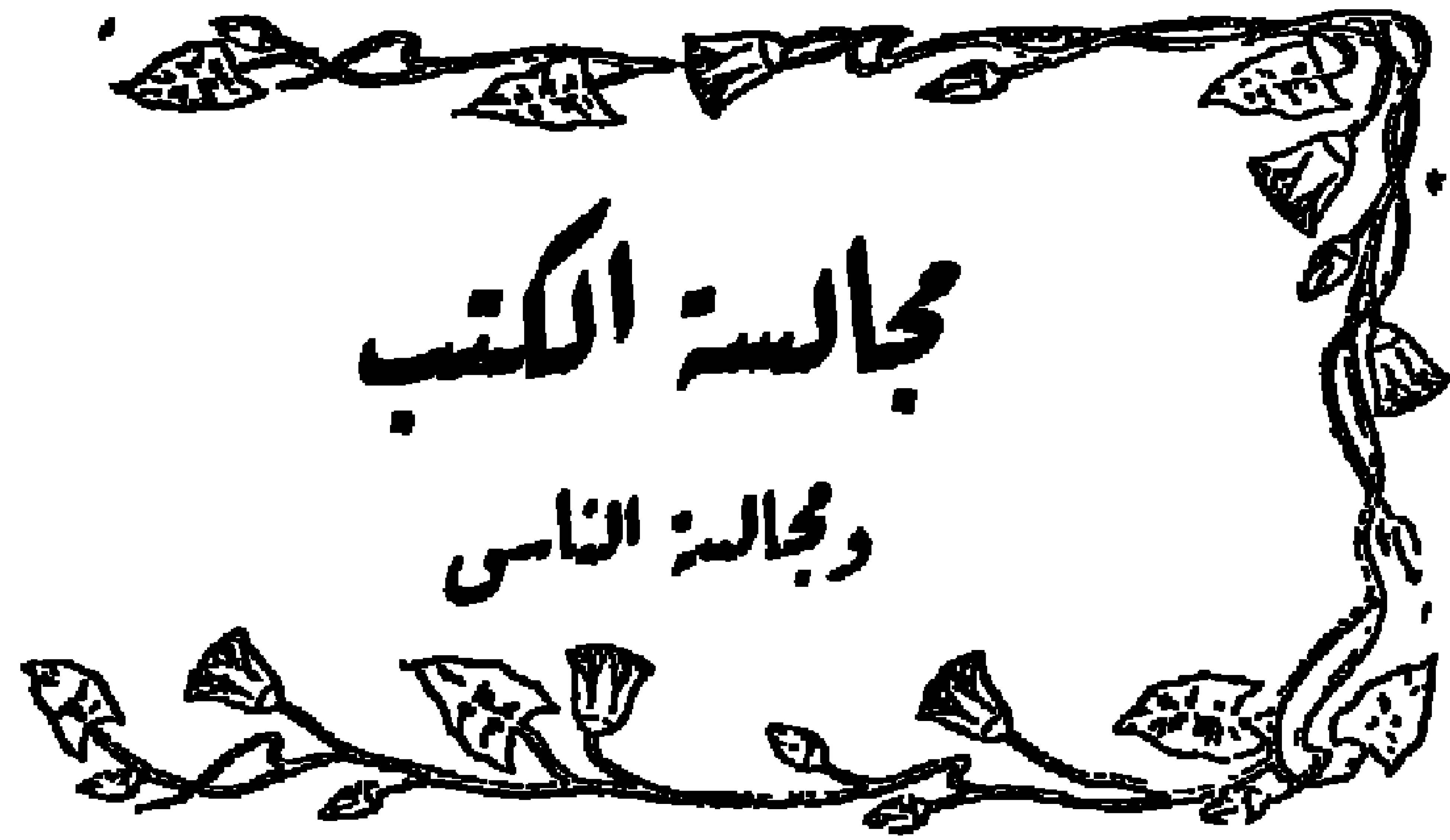
وليس يخفى موتها أو حياتها على الناظر اليها ، وقلما يفوته التقصير فى انطاق الوجه واداء المعانى المرتسمة على صفحته ، وقد تدق بعض المعانى المكتوبة عن الافهام لتعويصها أو غرابتها أو سموها أو لطفها ودقتها ولكن شخصية الانسان لا تخفى على الانسان وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لا معدى له عن أن يحسها ، والصورة كذلك ومن هنا كانت أشق وكان الاخفاق أخلق بأن يكون أبين

وأذكر أنى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً قام بنفسى أن أضع كتاباً « ضخما » فى فلسفة الشعر وأن أجعل هذا عملى الادبى فى حياتى وقلت لنفسى حسبى به اذا رزقت التوفيق فيه ، واستخرت الله فى امضاء الفكرة ولم يكن يغيب عنى فدحها فشرعت أعدلها العدة الكافية واقرأ كل ما استطعت أن أقرأه مما له علاقة قريبة أو بعيدة بموضوعى،وقسمت الكتاب الى أبوابه التى تنطوى تحتها أغراضه وحصرت كل ما أريد أن يتفرع اليه ثم لم تزل تقوم الموانع وتعترض الحوائل ومضت علي وعلى كتابى هذه السنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز الى هذه الساعة المقدمة وفصلين أحدهما هو المدخل !؟

ويظهر أنه ليس أعون على المثابرة والصبر من « خفة » الاحساس ومن أن يكون المرء بحيث لا تهتاج آماله أو مخاوفه الى درجة من الالم والالحاح لا تحتمل ولا يسع المرء معها رفقاً بنفسه وابقاء عليها الا أن يفرغ من الامر الذى يعالجه ولو خسر فى سبيل ذلك غايته ، وأعنى أن يكون المرء هادىء النفس قليل الاكتراث

قادراً على الانتظار مطيقاً للصبر راضياً عن نفسه مستعداً للارتياح الى كل ما عسى أن يشغله ، يستوى عنده أن يكتب فى الفلسفة أو يصف حوانيت الباعة ، وأن يستكشف القطب الشمالى أو يهتدى الى حانة تبيع الوسكى بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة ، ما دام هو الذى يفعل هذا أو ذاك وما دام رضاه عن نفسه لا يضعفه سبب من الاسباب. وليس من النادر أن يرزق هذا الضرب من الناس حظاً من البساطة الطبيعية ترفعهم وتذرى منهم . ولكن ما عسى صبر الذين تطغى بهم البواعث القوية وتلج بهم الاشواق الحادة والرغبات الجامحة وتدفعهم الى محاولة الوثوب وتعجلهم ولا تدع لهم فترة راحــة يروضون فيها نفوسهم ؟

ولعل هذا هو السبب فى أن الامة الانجليزية لم تنبغ فى شيء نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره الى الارادة والعاطفة ، وأن الامة الفرنسية من « أفصح » الامم . ذلك أن الشعر عبارة عن الاحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها و يرمز له بما هو أقرب الى الصورة التى هو عليها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فاحساس كذلك ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلقى اليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها أو نشداناً لتحريكها وحفزها الى العمل ومن هنا كانت الامــة الفرنسية أضعف الامم الكبرى شاعرية وأفصحها فى الوقت ذاته اذ كانت أشدها غروراً وأعظمها اعتداداً بالنفس !



مجالسة الكتب
ومجالسة الناس

كنت أهم بأن أكتب غير هذا المقال ، وكانت الفكرة حاضرة، والورق مهيأ ، والقلم مبريًا ، ولكنى أشرفت من النافذة فأخذت عينى صبيًا يلعب بالحصى ويهيل الرمال ، وفى ناحية أخرى فتاتان تتحادثان وتتضاحكان فقام بنفسى سؤال لم أستطع التملص منه على فرط ما جاهدت : ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبت أو بما عسى أن أكتب؟؟ بل هبنى جعلت الصبى والفتاتين موضوع مقالى وأدرته على ما أرى منهما ومنه ؟ ؟ أيكترثن لى أو يحفلن بى وبما أسطر ؟ كلا ! ولعل أحرى بى أن أسأل : أيعود أحد منهم أصلح للحياة وأقدر عليها وأعرف بها من أجل أنى أجريت هذا القلم بكلمات فيه أو عنه وهو لو قرأها أو تليت عليه لما أحس انه موضوعها ؟ ؟ كلا أيضًا ! ومع ذلك أباهى بما قرأت ، واعتز — على الاقل فيما بينى وبين نفسى — بما كتبت ، وأفرح بالخالجة تدور فى نفسى لحظة ، ويجيش بها صدرى برهة ، وقد أضعها فى كفة وأضع الطبيعة كلها فى كفة أخرى ! وبعبارة

أخرى أغالى بالفن وأعدو به قدره ثم اقلب بجزاء من يفعل ذلك !

أى شيء هـذه الكتب ؟ ستقول انها عالم حافل بالمتع ، وانها لكذلك ، ولكن أين ذلك الذى يسعه أن يزعمها العالم الوحيد ؟؟ وهى ديوان قيد فيه السلف ما وسعهم أن يورثونا اياه من معارفهم وخواطرهم وتجاربهم غير أن هـذا ليس معناه انها كل ما يمكن أن نعرف أو يخطر لنا أو نحسه أو نجربه . والحياة كتاب أوسع وأضخم من كل ما حوت المكاتب قديمها وحديثها وليس ما على رفوفنا سوى صفحات قليلة من هذه الموسوعة الهائلة . ولقد عبر « هولاكو » على جسر من الكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقل الزمن رجـله ، ومضت الحياة فى طريقها كأن لم يحدث شيء ولم يفقد الناس هذه الكنوز ، بل كأن لم يكتبها أحـد ولم يضن فيها نفسه ، ولم يخلق فى تحبيرها ايامه ، ولم يبل فى اخراجها حياته ! بل كأن لم يكن أصحابها قد خلقوا قط ! وهل ما أخرج الكتاب من آثار أقلامهم هو كل ما كان يمكن أن يكتب ؟ ؟ لا أظن أحداً ممن يعانى الكتابة يذهب الى هـذا فلعل ما كتبوا ليس الا بعض ما اضطرب فى صدورهم وقد لا يكون خيره . والكتاب الذين ظهروا فى هذه الدنيا ليسوا كل من يحس أو يفكر فرب تاجر يمسى ويصبح بين السلع جيـدها ورديئها ، والمساومات شريفها ووضيعها ، والمكاسب حلالها وحرامها ، هو أبعد مدى ذهن وأوسع مضطرب فكر من كانت أو كونت أو من شئت غيرهما ، ورب حمال يقضى عمره حانياً ظهره للاثقال هو أحس بالحياة

والطبيعة من ابن الرومى ؛ وقد تزدرى أميا جاهلاً وهو — لو علمت — أحكم طبعاً من المتنبى ، ولكنه الغرور ولا أدرى ماذا أيضاً — فليس أبغض الى من التقصى — يخيل لنا أن الحياة تعقم بامثال من ظهروا و يظهرون فيها من الكتاب والشعراء والفلاسفة ومن اليهم ! وكل هؤلاء الذين نعدهم « نكرات » يأتون الى الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلفون وراءهم أثراً أدبياً والدنيا لا تنقص بذلك كما انها لا تزيد بمن نعرف من أبنائها « المعارف » ! والحياة كالاوقيانوس الاعظم لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما تأخذ منه ! وهب الدنيا خلت ممن عليها من الناس ، وصفرت من كل أصناف الخلق فماذا اذن ؟ لا شيء ! تظل الارض دائرة حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن اضاءتها كما تفعل الآن اذ نحن عليهـا نروح ونجيء ونكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت ! ونحن نموت أفراداً وجيلاً فجيلاً أليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة فى نظرنا — لو انه بقى لنا بعد الموت نظر — ولا نعود نحن فيها ، أليس هذا هكذا أيضاً ؟ فهب جيلنا كان آخر جيل ، أفتظن أن الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل أننا نحن قضينا نحبنا ؟ اذن لا « تصوب » نظرك يا مازنى الى هذه الحيوات الصغيرة الساذجة التى تبدو لعينيك اذ تطل من نافذتك ولا تبتسم اذ تجتلى مظاهرها كأنك تزدريها أو « ترثى » لاصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ما عرفت . فانها حافلة بالمتع والعجائب.

كهذه الكتب التى تعنى بها ولا تكاد تحفل ما عداها ولعلها — لو بلوتها — أجدى عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه

وما من ريب فى أنى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة ، لخرج المقال من يدى على غير ما يخرج الآن ، ولكان الارجح فى الاحتمال أن أشيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها ، ولكنى لسوء حظها كبرت !! وبلوت من جرائرها ما أسخطنى عليها وبحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندى غثة لا تكاد تساغ ولا تستمرأ ، وأنى مضطر أن أعالج نفسى لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول لأستمتع بها . وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكراهة لمخالطتهم ولكنها الكتب قبحها الله ردتنى كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش ! ألست قد عشت بين خير العقول وأحس النفوس ، وألفت أن أتناول عصـارة الاذهان وخلاصتها النقية الممحصة ، واعتدت الصقل فى سوقها والفن فى عرضها وابرازها ؟ فما عسى الصبر اذن على أحاديث المجالس الخاوية المكررة المبتذلة ؟ ؟ كيف لمن يقضى الشطر الأكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتابها ، باطاقة المستوى الذى لا تكاد ترتفع عنه أحاديث المجالس ؟ ؟ وما للكبر دخل فى هذا ولا للغرور أصبع فيه ولا ظفر ، وانما هى العادة التى يقولون عنها انها طبيعة ثانية . وما مثلى الا كمثل الذى نشأ فى بيئة ارستقراطية كما يسمونها ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ؛

مثل هـذا لا يحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهارة أو العملة و باعة الاسواق . ولا شك أنه يحادثهم أحيـانًا و يحتك بهم قليلاً ولكن هذه ليست معايشة ، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يصدر الى واحد منهم أمراً أو يبتاع سلعة أو يفعل ما هو من هـذا بسبيل ، ولو أنه جالس طائفة من هذه الطبقة لملها واستثقل وطأتها على كاهل صبره . والعكس صحيح أيضًا . وليس السبب أن هذا من طبقة عالية وذاك من طبقة واطية أو متوسطة بل السبب فيما أظن هو أن من تتباين نشأتهم وتتباعد طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة ، والاحاديث تدور على الاكثر فى هذه الدائرة . ومن هنا لا يطرد الحديث فى مجاريه العادية بين من ألفوا الكتابة والقراءة وبين سواد الناس . ذلك أن الكاتب اعتـاد التفكير واطالة النظر الى المسائل من كل الجوانب التى يتفطن اليها و يسعه أن يحيط بها ، وان يعرضها مرتبة مبنيًا بعضها فوق بعض ويسوقها فى عبارة يتخيرها لها . وليست الاحاديث كذلك . فهى متقطعة متوثبة سطحية فى الأعم والأغلب ، ولا يزال الناس ينتقلون فى مجالسهم من موضوع الى آخر ولا يتريثون هنا أو ههنا ، فيكون الكاتب بين أمرين : أن يلزم الصمت . أو أن يثقل على جلسائه . ولا شك أن غشيانه المجالس واختلافه اليها يصقله و يعده لها و يذلل له ما تقيمه عادته من العقبات وقد ينفعه ذلك و يحرك ذهنه و يطلقه من القيود التى تحفه بها مزاولة فنه . ولكنه لا شك أيضـًا فى أن روح الاحاديث هو

التعاطف وان تباعد ما بين الجلساء يضعف هـذا التعاطف ويحيل المحضر موقراً باحتمالات الملل والسآمة من الجانبين . والمرء لا يستطيع أن يسمو فوق مسعاه لان استطاعة ذلك معناها أن المرء يسعه أن يحلق فوق نفسه وهو عين المستحيل . واعلم أن « الماسونية » ليست بمقصورة على رجالها وأن لكل طبقة منهـا نصيباً وكما أنه لا يفهم رموز الماسونى حتى فهمها الاصنوه وقرينه كذلك لا يتم التفاهم الا بين القريعين . على أن بعض الناس يذهبون الى أنه لا خـير فى محادثة القرناء اذ كانوا خلقاء أن يعرفوا ما عساك تقول وانما يحلو الحديث وتجدى – كما تجدى الصداقة – بين المختلفين . وهذا صحيح ولكنه ليس كل الصواب لأن كون اثنين فى مستوى واحـد لا يستوجب التطابق بينهما . وهـذه المدارس تلقن التلاميـذ علوماً واحدة غير أن هذا لا يجعلهم أشباهاً ولا يحيلهم كالنسخ المتعددة من الكتاب الواحد . وقد يقرأ الكتاب رجلان ويخرج أحدهما بغير ما يخرج به صاحبه

والكاتب يعنى بالفكرة قبـل أن يعنى بوقعها ، وهمه الاول جلاؤها وعرضها فى أحسن حـلاها وأقواها . ولا ريب أنه وهو يكتب يجعل باله أيضاً الى التأثير ، ولكن هذا لا يشغل من نفسه الحيز الاكبر بل هو يأتى تبعاً لمعالجة الاداء . والحال على خـلاف ذلك فى الاحاديث فأن المرء لا يزال يدير عينه فى وجوه الجلساء ليستشف منها الأثر الذى أحدثه كلامه . وما أشبه الكاتب بالممثل

الذى يعنى بدوره ويصرف همه الى القيام به ويخلى ذهنه ، على قدر ما يسع انساناً أن يفعل ذلك ، من التفكير فى جمهور النظارة الذين يجعلونه قيد أبصارهم ، أما حديث المجالس فقريب الشبه بالخطابة بل هو صورة مصغرة منها ، والمرء لا ينفك كما أسلفنا يستنبىء الوجوه ويستخبر العيون ويحاول أن يتخذ منها مرايا يجتلى فى صقالها وضاءة حديثه وبهجة كلامه ، ومن ذا الذى لا يعنيه ما يند عن شفتيه ولا يبالى أين وقع ولا يكترث لكلامه أتلقفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد ؟ ؟ ولهذا لا يسع المرء الا العناية بأمر جلسائه والا مراقبة حالة نفوسهم فيرتفع معهم ويحلق اذا رآهم مطيقين للتحليق راغبين فيه مستعدين له ويهوى معهم اذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك .

وأتعس المجالس وأثقلها على نفس الاديب تلك التى تتألف من الاوساط أدعياء الثقافة . فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول عن الصحف والمجلات يلوكون فيه ما تكتبه لهم . ويفسدونه افساداً لا سبيل الى الصبر عليه . وعذرهم واضح وعذرك أوضح . فالموضوع الذى يردونه منك اليك لا يعنيهم كما يعنيك ولا يستمدون الباعث على طرقه من أعمق أعماق نفوسهم مثلك . وقد لا يدرون عنه الا بعض ما التقطوه منك . وتشعر بالتقزز اذ ترى القوم يمزقون بأنيابهم خواطرك ومعانيك ويلقونها اليك خرقاً قذرة وتصدك الآداب العامة عن تنغيصهم ، ويقضى ذلك على

صدق السريرة ويذهب بالاخلاص ويغيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستفادة من الاجتماع ، ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها وبعض ما يقال عنها ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالاعلانات حتى لكأنهم فهارس حية أو قوائم متنقلة !

وليس من النادر أن يكون الادب أو العلم أو غير ذلك مما اشتهرت به من ذنوبك عند بعض الناس ، فلا يكاد يغشى أحدهم مجلساً لك أو يلتقى بك حتى يشرع فى تنغيص متعك وتكدير صفوك . فاذا كان الشعر فنك أنحى على الفن كله وبسط لسانه فيه وسمى كل سخافة « خيال شاعر » واذا مدحت شيئاً أو أظهرت ارتياحك اليه أو ولوعك به ذمه وسخر منه أو عرض بسوء رأيه فيه واحتقاره له — ولك ضمناً — اذا جبن عن التصريح وهكذا يظل يطاردك ويتعقبك حتى يسود الدنيا فى عينيك ويملأ نفسك نقمة على الحياة والناس اكراماً له !

والاديب كالمغنى الذى يرسل صوته غير معتمد على آلة موسيقية تشبع أنغامه وتسد نقصها وتملأ فراغها ، وقد ألف أن يجعل معوله على ما للعبارة وحدها من وقع ، وليست كذلك الاحاديث التى تستمد جانباً كبيراً من قوتها أو حلاوتها أو بهجتها من المكان والاجتماع والجلساء وهيئة المحدث واشاراته ونظراته وصوته . ومن هنا يخطىء كثيرون ممن يبرزون فى المجالس فيحسبون أنهم

يستطيعون أن يظهروا فى عالم الكتابة كما ظهروا فى عالم المجالس ويتوهمون أن الوقع الذى يوقعون اليــه فى أسمارهم لا يخطئهم اذا تناولوا القلم وأجروه بدلاً من اللسان .

وليس أشق — عندى على الاقل — ولا أشد اجهاداً للاديب من مجالس النساء ! ماذا يقول لهن ؟ ؟ فى أى شىء يحادثهن ؟ ؟ كيف يجعلهن يرتحن الى حديثه ويتق املالهن ؟ ؟ هن لا يكدن يحملن معهن غير ثيابهن وزينتهن وعجبهن وما يتصل بذلك من قريب أو بعيــد ، وهو لا يكاد يحمل معه سوى آرائه فكيف السبيل الى التوفيق بين هذه وتلك ؟ ؟ ومجالسة الكتب تحيل المرء أشبه بها حتى ليعود وكأنما لا ينقصه الا أن يغلف ويوضع على الرف بين اخوته !! وطول العهد بها يشيب النفس قبــل اشابه الرأس ، ويطفىء لمعة العين ، ويعوق تدفق النشاط الجثمانى ، ويغرى بالسهوم والصمت ، ويفعل ما هو شر من ذلك : يبعث على التعلق بالمثل العليا وصور الكمال ويُشرب النفس حبها ويعلمها نشدانها فاذا راح يضرب فى غمرة الحياة تعثر ولقى فى كل خطوة صدمة : كالذى يسلك طريقاً ومعه مصور لخلافه :!



لولو . . . ! !

لولو ؟ ! ما « لولو » هذا أو هـــذه ؟ أهى فتاة حرة المقلد ؟ أم طفل غرير مدلل ؟ أم زهرة نضــيرة ؟ أم عصفور مغرد ، أم أغنية شجية ؟ أن فى اللفظ ما يشعر « بالصغر » ويكر بالذاكرة الى « الشباب » — ان كان قد ولى أوانه — وحسبك أن نطقه يتقاضاك زم الشفتين ، وتكليف العينين ابتسامةَ الدعابة ولمعةَ الغبطة ، وتجشيم الاسارير الابراقَ ، والنفس محاولةَ الاشراق ، فماذا هو ؟ لا أدرى ! ! ولعله كل ذلك ، فما أعرف من اللغات الا ما ليس فيه هذه ، ولقد شببت عن الطوق « جداً » وارتفعت عن كل حداثة ارتفاعاً أجلسنى على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء ، وأما الشباب و إيماض العيون واشراق النفس فانى أنا القائل :

نضب العزم ، والمنى ثرة العين — لعمرى ما أسوأ القرناءا !
شيبة العزم مع شباب الامانى ! — أضعيف يظاهر الاقوياءا ؟ ؟
دون ما تبتغى حوائل ضعف — فاجعل العزم والمنى أكفاءا
أيها «الطين» ماترى بك أبغى ! — لست فيما أرى لشىء كفاءا !!

ان طلبت السماء قلت لى الارض؟ أو الارض كنت لى عصاء!
صرت حتى الذى أفكر فيه لست أسطيع صوغه والاداء!

والنفس تهرم أحياناً قبل الجسم ، فتعود وكأن الزمان عمرها ، وإن كانت بسنها صغيرة ، وكلما أحس المرء دبيب الهرم زاد شعوره بالتبعات ، ووجد أن الحوادث لا تتوالى على روى واحداً ، وأن منطق الطبيعة غير منطقه ، وأنه يدنو من مركز الدائرة وينأى عن محيطها ويشعر بالدنيا تدور حوله فى صخب وضوضاء يزعجان تلك الخلية الضئيلة التى تسمى الحياة ، ويرجانها فيتمنى لو أنه استطاع أن يحول دون النمو ، وأن يأخذ على الايام متوجهها ، وأن يبقى عمره طفلاً يدور مع الحياة على محيطها .

ولكن الذى أدريه أن صديقاً لى ، فيه شذوذ قلما أفهمه ، قال لى عصر يوم فى الاسكندرية « متى تعود الى مصر؟ » قلت « صباح غد » قال : « اذن قم بنا الى ساحل البحر » قلت « البحر ولا شك خير من جوف هذه المدينة فلننهض اليه اذا شئت ، ولكن الى أى بقعة من ساحله نذهب ؟ » قال « وما يعنيك من هذا ؟ أو ليس كله ساحلاً ؟ » فلم أشأ أن أثقل عليه فيضيق صدره ويسوء خلقه ، ونهضنا الى الترام فركبناه وخليت بين صاحبى وبين سبيله حتى انتهينا الى آخر موقف ينساب اليه الترام فانحدر بى الى طريق لا يفضى الى بحر ولا الى صحراء !! وانما يؤدى الى درب بين الحقول تقطعه السيارات الى ابى قير ويترقرق على محاذاته جدول صغير ، ثم

أخـذ ينفض المكان بعينه كالذى ينقب عن مخبأ فيه وهو معبس محدق فى الارض يعد خطواته فى هذا الطريق الذى مِلنا إليه ، ومعلوم ان الخواطر كالمطاط لا تشغل حيزاً واحـداً على الدوام فقد ترى الخاطر الضخم مضغوطاً فى الذهن من فرط الزحام حتى ليعود كالذرة . وقد تنتفخ الخالجة الصغيرة وتملأ من الذهن كل فراغ يكون فيه . كذلك كان رأس صاحبنا خالياً الا من أمر واحد هو الذى ساقه وساقنى معه الى هذا المكان

ولم أرد أن أزعج عصافير رأسه وأطيرها عنه فتركتها تسقسق له وخليته ينصت اليها ، وسرت الى جانبـه صامتاً مخففاً الوطأ وصرت أشفق عليه حتى من وقع قدميه . وكنا قد ملنا الى جانب معشوشب من الطريق حسبته آثر المشى على حشائشه الندية لان صوت الاقدام فيه أخفت ولكنا لم نكد نقطع منه بضع عشرة خطوة حتى وقف بغتة كالذى صده جدار وأومأ بسبابته الى الارض وهو يقول لنفسه « هـذا هو المكان بعينه » وارتمى على الارض دون أن يكترث لى كأنه لا يرانى أو كأنى لست معه ! فضقت ذرعاً بهـذا الحال ، وأسفت على مسايرته ، وما ذنبى حتى أتكاف الصبر على كل هـذه الكتلة من الشذوذ ؟ لقد أردت الرياضة ولكنى أرانى كالذى خرج ليدرس موضوعاً ! غير أنى مع هذا كبحت نفسى عن مطاوعـة السآمة والاستسلام للضجر ، وأقنعتها بأن من المروءة أن يحترم الانسان احساساً — كائنا ما كان — يستغرق النفس الآدمية

الى هـذا الحد ، حد الذهول ، ويستولى على كل جوانبها ، ويملأ كل شعابها ، وينبض به كل عرق . وما يدرينى ؟ لعل هـذا الاحساس ، مهما يكن باعثه المباشر ، ثمرة احساسات عمر بأسره وحياة بكل ما انطوت عليـه ! ومع هـذا ، وعلى الرغم من ذلك هممت بأن أقف على كيانه المتداعى هذا وأقول له ساخراً « أعاشق أنت يا سيدى ؟ انها لساحرة تلك التى تستطيع أن تصنع هذا بمثلك ؟ » ولكنه كان خاطراً كخطف البرق ما جاء حتى ذهب . فقعدت الى جانبه وخلعت طربوشى وغطيت به وجهه ! ! فاستوى قاعداً وهو يقول « انى أعرفك شيطاناً ! فلماذا أطرت أحلامى ؟ » فانحنيت له معتذراً ! فقهقه ضاحكاً وكف فجأة وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال بلا تمهيد

« لقد كان هـذا المكان ساحراً ، وكانت أوراق الشجر والحشائش كالجديدة ، يومض فيها طلها تحت أشعة الشمس ، وكان يخيل لى أنها « مستوردة » لا نابتة وكانت من رقة النضارة فى رأى العين بحيث كنت أشفق أن أطيل النظر اليها مخافـة أن أذويها باجالة الطرف فيها . وكانت الشمس ، قوية وكان يقينا لفحها هـذا السياج من النبات ومن خلفه هذه الخراف بأعيانها سوى أنها كانت مستلقية على الارض لا ترعى ، وكانت الفراشات لا تكف عن الطيران من هنا الى هنا كأنما حماها صغرها تأثير الحرارة التى تذبل ما هو أكبر منها . وكان بساطنا هـذه الاغيصان الندية ، والناس

يمرون بنا ويديرون عيونهم فينا ثم يذهبون عنا ونحن فى شغل عنهم وعن لحظاتهم بأحاديثنا و . . . . »

« وماذا كنتم تقولون ؟ أو لعله ينبغى أن أقول ماذا كنتما ؟ ؟

فلم يلتفت الى استدراكى وقال

« كانت لولو . . . . فهذا اسمها عندى . . ألا تعرفه ؟ . .

« قد عرفته الآن ! »

« . . كالتى يفيض قلبها بشىء تحبس نفسها عن الافضاء به . وكانت ربما أشاحت بوجهها عنى وأسندته الى كفها وأرسلت لحظها فى الفضاء غير ناظرة الى شىء على التعيين وتركتنى أصب فى مسمعها ما أهضب به . وقد تجيبنى أحيانًا ولكنى كنت اقرأ فى عينيها غير ما يجرى به لسانها ، فكان بيننا حديث مسموع وآخر صامت وكان الصامت أصدق الحديثين، نعم فهى عجيبة فى تناقضها ، عجيبة فى ازدواج شخصيتها ، لينة النظرة ، جامدة الفم ، ريضة الخلق ، ساكنة الطائر ، مكلومة الفؤاد ، هادئة المظهر ، تتناول كفها فلا تدرى ألينة هى أم صلبة ، وتتأمل محياها فتحس فيه الذائب والجامد ، والسلس والوعر ، والترف والخشونة ، والحرارة والفتور ، والرغبة والزهد ، والضعف المتناهى والقوة التى تغرى بقلة المبالاة وتدفع الى عدم الاكتراث بما كان وما هو كائن وما سيكون . ولقد استثارتنى رقة عينيها فأمسكت عن اتمام ما كنت قائلاً كأنما كان الكلام يعوقنى ، كالذى يخلع نعليه ويدعهما ويعدو حافيًا ، وجذبتها الىّ بغتة وان

كان لا شك انها كانت تتوقع ذلك وضمتها وطبعت على ثغرها قبلة . ولكنها ضمت شفتيها ولم تعاطنى التقبيل ! وان كانت عيناها قد ظلتا تلمعان بنور الابتسام ، ثم مسحت بكفها على الحشائش وقالت « لا ينبغى ان نظل هكذا جالسين فقم بنا نعد من حيث أتينا فقد أمسينا . »

قلت « دقائق أخرى ! »

قالت « بل يجب أن نعود أدراجنا »

قلت « فقبلة ثانية أولا »

قالت : « حسبك واحدة» بلهجة من يكظم زفرة طويلة حارة. ثم رفعت الى وجهها فقرأت فى صفحته :

« انى أخشى ان أرعبك اذا أنا كشفت لك عن حدة رغبتى فى الاستسلام لعواطفى ! كلا ! لست بالفاترة التى تراها وأنى لأحس انه كان الاولى ألا أحبى بهذه المفاتن اذا لم يكن من حقى أن أتمتع بها . وهل وهبنى الله اياها ليتمتع بها الناس دونى ؟ ؟ »

ومع ذلك ألحت أن نعود !! »

وأكب ينظر الى الارض برهة وجعل يقتلع الحشائش ويعبث بها ويقول :

« ولها نظره انكار أوشك تلقى اليك بها بجانب عينيها ، كلها تصديق وكلها تكذيب ! كأنما علمتها الايام أن تستريب ولا تطمئن الى ما تسمع ، وأن تعد عبارات الحب والعطف ملقاً ودهاناً ، أو لهواً

وعبثاً ، ولكن شبابها يغريها بالركون الى ما يدرك عقلها الذى نضج قبل الاوان انه « الفاظ ألفاظ » كما يقول هملت ! فيالها من نفس ظامئة ! ما أقسى الحياة التى تحمّل زهرة ليس لها غير الحسن قوة ، ما تنوء به الشجرة الضخمة ! »

ثم التفت الىّ فجأة وسألنى « وكم تظن عمرها يا صاحبى ؟ انها لا تزال فى العقد الثاني من حياتها ! فلشدما أخشى أن تذبل هـذه العين وأن تخلو من المعنى لحاظها ! لقد جالستها ثلاث ساعات طوال لم تنطق فى خلالها بما يملأ خمس دقائق ! وشفتاها مع ذلك تهمان أبداً بالانفراج ، ولكن شيئاً يطبقهما ويعيد ما يحاول ان ينفذ من بينهما ، الى صدرها فيعلو ويهبط وتظل الشفتان مطبقتين ! ولقـد قلت لها جادا « هنا شيء يجثم على هذا الصدر » فأدارت الى بعض وجهها ونظرت الىّ بمؤخر عينها وقالت واللمعة شائعة فى العينين والتحجر مرتسم على الشفتين « أى شيء ؟ » قلت « لا أدرى ! ولكن هنا شيئاً على التحقيق ! وأراهن ! » فهزت كتفيها كالآسفة وقالت « لا ! أبداً ! ! » فالحفت فى المسألة وداورتها فلم يجدنى ذلك ولم أفز بطائل فليت لسانى كان فى فمها ! اذن لنطقت عنها ولرفهت عن هـذا الصدر المثقل بما لا تحسن العبارة عنه ! وهل هو الا الظمأ الى الحب ؟ ؟ هو ذاك على التحقيق ، الظمأ الى ما تحلؤها عنه الدنيا وتحرم عليها أن ترد شرعته وتعب فيها كخلق الله : وماذا عسى أن يكون غير ذلك وهى فتاة غضة الاهاب تنأى بها ظروف لا حيلة

لها فيها الآن على الاقل عن الزواج وتتقاضاها هذه الظروف عينها أن تبقى عفيفة محصنة ؟ شبابها وجنسها يأمرانها أن تنشد الحب وأن تنشد به الحياة والنسل ، والدنيا تأمرها أن ترفض هذا ، وأن تخرس اللسان الذى يدعوها اليه ، وتضع أصابعها فى مسمعيها دون الصوت الذى يناجيها به : وأى لسان ، وأى صوت ؟ انه لسان الجمال الذى يعبّدنا جميعاً وصوت الحيـاة التى تسخرنا ولا ترحمنا ولا تعفينا ولو مقدار ثانية من الاذعان والامتثال . فكر فى هذا ثم أنكر وهز رأسك بعد ذلك اذا استطعت . »

وبعد اطراقه قصيرة أخرى :

« وتالله ما كان أقسانى عليها ، وأعنفنى بها ، وأقل ترفقى بهذا القلب الجديد ، حين قلت لها وقد ساقنى الحديث الى ذلك « ان فى وسعك أن تستغني عن زوج بل أنت لا معدى لك عن ذلك ولا خيار لك فيه ، ولكنه ليس فى مقدورك أن تستغنى عن رجل». ولقد لبثت بعد ذلك وقتاً أعتذر عن نفسى من هذه القسوة بالقول بأنى أحسنت اليها بالعبارة عما فى نفسها وبأن دللتها بكلامي هـذا على مكان الجرح من قلبها ووضعت أصبعها عليه ، ولكنى أخشى جداً أن أكون قد نكأته ! »

— « وماذا كان جوابها ؟ »

— « لم تجب بشىء سوى نظرة طويلة الى الفضـاء ! وماذا كنت تتوقع منها ؟ أن تنكر أن لها جنساً ! ولقـد خاصرتها وأنا

أعود بها فى هذا الطريق بعد أن انحدرت الشمس فلم تنح ذراعى عن خصرها ولم تتحرك لذلك شعرة واحــدة فى بدنها ! فكأنى كنت مطوقاً بذراعى الحى هذه دمية لا تستطيع أن تحس حرارته !»

— « وماذا أنت منها الان ؟ انى أخشى . . »

— « ماذا أنامنها ؟ لا شىء على الخصوص ! أحب أن أراها من حين الى حين وأن أستشف نفسها وأطلع من عينيها على المغيب فى ضميرها . وسم ذلك حباً ان شئت ، أوسمه لهواً ، فما يعنينى كيف تصفه ، وما أعرفنى عبأت قط بهذه الالفاظ . ولكنى لا أكتمك انى أعطف عليها وأرثى لهــا . واحسبنى انما أعطف على نفسى فى شخصها فان بى منها مشابه . غــير أن بيننا حوائل تتعاظم المجتاز ، وجوناً عريضاً يعيى ساقى أن تتخطياه . وليتنى أدرى كيف أحييها وأرد اليها روح الشباب الذى تقمعه الايام قبــل الأوان ! ولكنى كبرت واأسفاه ! وفقدت أنفاسى حرارتها . والنساء عندى كتب تقرأ وموضوعات تدرس لاجمال يعشق . ولقــد كنت فى زمانى شاعراً أو شبهه ، وكان للدنيا بنفسى حلاوة ، ولكنى أصفيت بعــد أن نضب معين الشباب وعدت كما تقول يا صاحبى « كأنى من دمائى أشرب »

قلت « قم بنا عن هــذا المكان فقد أوجعت رأسى وسودت الدنيا فى عينى . تالله ما أجهلك بالدنيا و بصاحبتك ! » قال : لقــد كان لا بد لى من مكاشفة صاحب بما فى نفسى وقــد فعلت !

فاستحمقنى اذا شئت ، ولكن خل رأيك لنفسك فما أحفله كيف يكون مادمت أجهله . »

ونهضنا نعود فسمعته يقول فى بعض الطريق « لقد كبرتُ ! »

ولا أدرى كيف حدث منى هذا : ولكنى رأيتنى ابتسم وأدفع ذراعى حول خصره وأطوقه بها فانتفض مذعوراً وصاح بى

« أيها الشيطان اللعين ! ! »



نشأة الشعر وتطوره

كنت في ليلة أقلب ديوان ابن الرومي وأدير عيني في صفحاته متأملاً ورقها دون ما حوته من الشعر ولم يكن مرادي ان اقرأ شيئاً بل ان أحول بين العين والمطالعة ، وكانت الرغبة فيها شديدة ولكن الاطباء يعظونني أن أجهد عيني بالقراءة على ضوء المصابيح . وما أدراك ما الاطباء ! هم الذين يقول فيهم اديسون على ما اذكر ، ان المغول والتتار كانت غاراتهم كثيرة قبل ان يعرفوهم فلما ظهر الاطباء بينهم وكثروا — الى حد — عندهم انقطعت الغارات !! ولنرجع الى صاحبنا ابن الرومي فنقول انى بينما كنت أجيل عيني في ديوانه غير معتمد شيئاً على التعيين استوقفني قوله من قصيدة يهجو بها البحتري وكان معاصراً له :

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بهـا
من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حـين يصغي السامعون لها
ممن يمـيز بين النبع والغرب

رقى العقارب أو هــذر البناة اذا

أضحوا على شعف الجدران فى صخب

ولا نعرف ما رقى العقارب ولكنا نعرف ما يعنى بهذر البناة على شعف الجدران فهى ما ينشدونه ويرددونه أثناء عملهم من الأغانى الساذجة . وقد ذكرت لما قرأت هذا ، بالليلة يوماً وبالبيت موضوعاً له قيمته فى نشأة الشعر . فأما اليوم فكان فى الاقصر منذ عامين وبضعة أسابيع وكنا — انا والاستاذ الدكتور حسين بك هيكل — فى معبـد الملكة حتشبسوت فيما يسمى الآن « الدير البحرى » وهو معبد منقوب فى الجانب الشرقى من وادى الملوك وممتد شرقاً الى الصخور التى تفصـل الوادى عن سهل طيبة . الى هذا المعبد أقلتنا مركبة ذات عجلات عريضة هى شر ما يحمل أنساناً فوق تلك الارض الصخرية . وكان النهار قد انتصف فاتخذنا من الحجارة كراسى ومن صخرة ضخمة هناك مائدة تناولنا عليها طعامنا بين أعمدة البهو الاسفل عنـد مدخل المعبد وحولنا رسوم ونقوش محت الايدى والايام بعضها ولم تبق منها واضحاً سوى صف من الجنود يحملون عدا السلاح اغصاناً والوية يقابلهم فريق من الرماة والى اليسار صور قصابين وكهنة يعدون الضحايا والقرابين وفوق هؤلاء وأولئك زوارق تنحدر على النيل وفيها مسلات . فلما أصبنا حظنا من الطعام رقدنا على الارض وأسند كل منا رأسه الى حجر سد مسد الوسادة . وانا لكذلك واذا صوت فضى النبرات يصافح

آذاننا فراعتنا حلاوته وضاعف حسنَ وقعه ما يحيط بنا فى هــذا الوادى القفر من الاطلال وما تثيره فى النفس من الخواطر والذكريات وسألنا الحارس فقال هؤلاء عمال يحفرون الارض ويرفعون التراب عما يظنه مستأجرهم أثراً أو قبراً ، وعادتهم ان يغنوا وهم يعملون فاعتدلنا حيث كنا وجعلنا بالنا الى هذا الصوت وكان صاحبه كلما غنى شطراً اجابه جمهور الفعلة ورددوا على أثره جملة لا تكاد تختلف يعيدونها ويرجعونها بعد كل وقفة منه . وكان الوزن ظاهراً فيما يغنى الصبي وتعيد الجماعة فحاولت أن أدون ما ورد سمعى من ناحيتهم ولكن بعــد ما بيننا وبينهم حال دون الدقة فى النقل والضبط فى الرواية وعلى ان ما أثبتُّه من ذلك قد ذهب لا أدرى أين ؟

وهذا كل ما اهتديت اليه :

أنا اجول للزين سلامات　　على حسب وداد جلبي

خبط الهوى على الباب　　جلت الحبيب جانى

أتاريك ياباب كداب　　تنهــد من عالى

ولقد كنت أحب أن أورد للقارىء سطوراً أخرى من ذلك ليس أعون منها على تبيين ما أريد أن أقول غير أنه يعزينى عن فقد ذلك ان القارىء لا يعييه أن يجد بديلا يقوم مقام ما ضاع منه . وما عليه الا ان يلاحظ النوتية وهم يعملون فى زوارقهم أوسفنهم أوالعمال وهم ينقلون الاحجار أو يحفرون أرضاً أو يجرون ثقلاً أو نحو ذلك فانهم فى اكثر الاحيان يغنون ويتسلون بمثل ما كان جماعة العمال

فى طيبة يغنون و يتسلون ، وأكثر ما نجد ذلك فى القرى النائية عن الحواضر وفى حينما يحتاج العمل الى أيد كثيرة تشتغل معاً وفى وقت واحد . غير ان هذه الاغانى ليس لها ضابط أو صورة نهائية . إذ هى لا تنفك تتغير ولا تثبت على صورة واحدة بل تنشأ وتتحول و يطرأ عليهـا جديد يوقع على أنغام قديمة أو تغنى مقاطيع منهـا قديمة على ألحان جديدة . وقد يثبت ما يردده المشتركون فى الانشاد و يتغير ما يغنيه الفرد، وفى وسع المغنى الذى يكون كالزعيم للجماعة أن يبتكر ما يشاء و يرتجله وأن يستحدث فى المأثور الذى يحفظه و يقدم و يؤخر فيه و يمضى فى ذلك كله الى غير غاية مستمداً من ذاكرته أو من وحى الساعة أو من إلهام العاطفة التى تملكه أو من هاتيـك جميعاً . فليس أسهل من الارتجال فى مثل هـذا الموقف . والقارىء اذا تدبر عصور الشعر العربى خليق أن يتبين منها أن الارتجال يكثر فى أولاها أى فى العصور التى يكون الناس فيها متقاربين متشاكلين لا يتميز بعضهم عن بعض كثيراً . والمرء اذا ألفى نفسه بين أترابه وأنداده اطمأن وأرسل نفسه على سجيتها لانه فى هذه الحالة يضمن المقدار الكافى من التعاطف اذ كان بين مماثلين له

وهذه الاغانى التى نتكلم عنها كثيرة فى المدن والقرى وان كانت فى القرى أكثر منها فى المدن . ولكن ما أقل ما يستطيع المرء أن يدون شيئاً منها على أنه مثال لها وعنوان عليها ! ذلك أنها كالتيار العام قطرة منه أو ملء ماشئت عمقاً واتساعاً ، ليس بالتيار !

كذلك يكتب أحدنا مقطوعات يسمعها من هــذه الاغانى القديمة المتجددة كموج البحر فاذا هو لم يفز بشيء لانها لا تستقر على حال ولا تثبت كما أسلفنا على صورة

ودع الحاضر وارجع الى الماضى وصور لنفسك جماعة من الناس لا يزالون على الفطرة لم يأخذوا من المدنيــة بنصيب ولم تقسمهم الصفاتُ الشخصية والملكات العقلية طوائف ولم يفرق بينهم اختلافُ المراتب وتباين الاعمال وتعــدد الآراء . وتلك مرتبة من الحيــاة لا تكون فيها أبواب التعبير الطبيعى موصدة ولا يجهل فيها المرء — أو لا يحس أنه يجهل — ما يجرى فى ذهن جاره أو رفيقه ولا يستحيي أن يعرب عما يجول فى خاطره ويجيش به صدره مخافة أن لا يفوز بالعطف والتقدير اذ كانت حدود الفرد هى حدود التقاليد المشتركة بين الجماعة كلها . فى هذه المرتبة من الحياة كيف تكون نشأة الشـعر ؟ يكون — كما هو ظاهر بالبداهة فيما نظن — عملاً من أعمال الجماعة كلها وملكا لهــا لا لفرد . ويجىء تالياً للرقص والغنــاء وتابعاً لهما ومتفرعاً عنهما وغير منفصــل منهما فان شككت فى أن الامر لا بد أن يكون كذلك فقل لى أيهما تظن كان أسبق فى تاريخ الانسان : الحركة أم اللغة ؟ نحسب أن الجواب على هذا لا يمكن أن يتعدد ! فان الانسان قد صدرت عنه الحركات قبل أن يعرف ان له لساناً يمكن أن يكون أداة لنقل الاحساس أو الخاطر الى زميله الانسان . فالحركات البدنية أسبق من اللغــة على التحيق . ولكن هل الوزن

كذلك ؟ نقول نعم ولا نتردد، لأن الوزن ليس شيئاً سوى الانتظام في الحركات فهو أشد ارتباطاً وأسهل مساوقة لحركات الجسم، وما زالت الاشارات والحركات من متممات التعبير اللفظي الى الآن ؛ واللغة ليست إلا اداة للتعبير تحل تدريجاً محل ما كان قبلها هو الاداة لهذا التعبير، لأن العبارة عن العاطفة بالحركة الموزونة على تدفقها، أسهل – ومن أجل ذلك كانت أسبق – من العبارة بالألفاظ التي انتظمت بها الأصوات وتعينت واستقرت على معاني صارت محدودة مألوفة . ومتى انتظمت حركات المجتمعين واتزنت على مقتضى العاطفة المشتركة بينهم — لفرط تماثلهم — كان من المعقول بعد ذلك أن تخرج الالفاظ مستوية في ترتيبها على وزن هذه الحركات، وعلى ذلك يكون أول ما عرف الانسان من الشعر هو عبارة عن لحن موزون يند عن أفواه المجتمعين إذ كان جارياً على ما تتطلبه وتؤدى اليه الحركات التي يشتركون فيها ويؤدونها معاً على نسق واحد وعن عاطفة عامة شائعة بينهم على السواء، وليس من الضروري ولا من المفروض أن يكون لهذا اللحن معنى معقول لأن كونه معقولاً أو غير معقول مرجعه الى الفكر، ولكن العاطفة أسبق في تاريخ النشوء الانساني من الفكر

اذن كان الشعر لأول ما عرفه الانسان ألفاظاً مجموعة تكرر، وأسماء تتخلل الألفاظ، وعبارات لها قيمتها الايحائية عند الجماعة

لا أكثر،على الأرجح، وصرخات تند بين ذلك، مصبوبًا كل هذا في قالب موزون على حركات الجماعة في حفلاتها المختلفة لمناسبة زواج أو وفاة أو غير ذلك ومعقول أن تكون الاشارات أو التلحين أبرز من سواها في هذا الطور الساذج

ثم ماذا ؟ ثم يا سيدي يجد عامل جديد يؤدي الى التطور . كانت الجماعة متشاكلة الأفراد ولكن التميز يحدث ، و يقوى الشعور بالذات شيئًا فشيئًا و يزداد الاحساس بالاستقلال و يبرز الفرد تدريجًا و يأنس من نفسه ما لا يأنس غيره من نفوسهم فلا يقنع بأن يبقى في حلقة الجماعة يردد ما يقولون وليس له من الشأن إلا مثل ما لكل منهم ، و يندفع مجترءاً على التقاليد – لأنه لا يسعه إلا هذا – و يعلو بصوته أصواتهم فيروعهم فتخفت أصواتهم قليلاً و يمضون في حركاتهم ولكن عيونهم تتعلق به وآذانهم ترهف له فاذا به يستحدث ما لا عهد لهم به و يدخل على ما كان قصاراهم أن يفعلوه ، حواراً مرتجلاً يقص به قصة ساذجة بطبيعة الحال . فيحسن وقع ذلك في نفوسهم و يطيب لهم أن ينصتوا ولكن الطفرة محال كما يقولون فلا يصمتون كل الصمت بل يتعلقون بعبارة مما يسمعون منه فيرددونها وراءه كلما سكت . وليست هذه بالخطوة القصيرة . فقد كانت الجماعة قبل ذلك هي المؤلفة للانشودة — اذا جاز اطلاق هذا اللفظ على ما كانوا على الارجح يتصاخبون به — وليس للفرد الا مثل ما لسواه من الفضل . ولكن الجماعة بعد الآن بدأت تقتصر على الرقص

والاشارات وتجتزىء بسماع ما يصبه فرد فى آذانها وبترديد عبارة معينة لا تعدوها وصار عمل الفرد فى ابتكار القصة أو الحوار أبرز وأظهر وهو يروى ويقول ما تخطره الظروف فى ذهنه وتجريه فى باله وعلى لسانه، وهى تكتفى مما كانت تقوم به بمشاركة هذا الفرد فى حالته النفسية وبترديد ما يوكل اليها ترديده

ثم تتوالى الخطوات متتابعة متلاحقة كالعجلة تدور بصعوبة فى مبدىء الأمر ثم تزداد ادارتها سهولة بعد ذلك . فيتضاءل عمل الجماعة من الاشتراك فى التأليف الى الاقتصار على الترديد الى صيرورتها معينة بحركاتها للفرد على المحافظة على الوزن وتمثل لذلك بفرق المغنين عندنا . تجتمع طائفـــة منهم هذا بعوده وذاك بقيثارته وذلك بقانونه أو مزماره وغير هؤلاء بحناجرهم ! ثم يفتتحون العمل بتوقيع موسيقى لا يصحبه غناء ثم بموشح يوقعونه ويغنونه معاً حتى اذا انتهوا من ذلك شرع زعيمهم يغنى صوتاً ينفرد هو بأكثر مقطوعاته ويشترك معه الباقون فى بعضها، وقد يغنى بعد ذلك موالاً لا يشاركه فى غنائه أحد ولـكن يظل ينقر له الموسيقى على وتر معين ليساعده على الاستمرار على تصـــور الصوت وعدم الخروج عنه . وليس هذا سوى مثل ضربناه تقريباً للمسألة من الافهام لا لنقيس هذا على ذاك

وهكذا يختفى أثر الجماعة تبعاً للتطور ويظهر الفرد حتى اذا تألفت تأليفاً سياسياً وانتقل بذلك مركز الثقل ظهر الشاعر الفنى

المستقل عن الجمهور وصار أمر الشعر كله الى الفرد وأصبح هذا الشعر ديوانًا تقيـد فيه الاخبار وتسجل حوادث التاريخ وأعمال الابطال فيتسع الأفق ويرحب المجال امام الشاعر ويغشى غمار الحرب والسياسة بعد أن كان لا يلم قديمًا فى شعره بغير المرأة ، ويركض فى حلبة الحوادث العامة التى تمس حياة القبيلة أو الأمة ولا يقتصر على ما له علاقة بالاسرة أو النفس . وهكذا . .

والجماهير؟ يبقى لها شعرها الخليق بمستواها . ولـكنه لا يتقدم ولا يترقى . لأن مستوى الذكاء المتوسط يمنع شعر الجماهير أن يعلو ويسمو . وهذا هو حده . أما من يمتاز من الافراد عن هذا المستوى ويرتفع عن طبقة الجماهير وحاجاتها وأذواقها فلا يبقى له محل إلا بين من يستطيعون أن يقدروا مزاياه التى انفرد بها وخلت به عن الجماهير . وان أحدنا ليسمع الانشودة فى الاقصر ويسمع أخرى فى القاهرة وثالثة فى غير هاتين المدينتين فلا يملك إلا أن يحس كأن واضع هذه وتلك واحد إذ لا خلاف ولا فرق الا فى النطق والا فيما تدعو اليه الاحوال المحلية التى لا تقدم ولا تؤخر ولا تمنع التشابه بل التطابق فيما هو جوهرى .



أول معجم وأقدم ديوان

يقول شاعر قديم :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول !

وبهذا البيت المفرد لخص وظيفة الجنسين فى نظره أوجز تلخيص وأقربه الى الصواب وأشبهه بالحق . ولكن القافية جنت على المرأة وساعدها فى جنايتها عليها وظلمها لها تعصب الرجل لجنسه. ولعله بعد لم يعدُ ما كانت عليه الحال فى زمنه ، أو لعله لم يقصد الى المقابلة بين وظيفة الرجل فى الحياة ووظيفة المرأة فيها وانما أراد أن يؤكد عظم ما هو موكول الى الرجل ويجسم خطره ومشقته ويبرزه فى أقوى صورة بأن يرفع قبالته ظاهرَ ما تكون عليه المرأة من خلو البال وفراغ اليد والاطمئنان والتنعم بمجهود الرجل . وعسى أن يكون

قد شكا وتضجر من حيث أراد أن يباهى و يفخر ، غير أنه على أى وجه قلبت بيته والى أى تأو يل أخرجته ، قد ظلم المرأة وغمطها حقها وجنف فى حكمه وقسا عليها فيه . وليس فى مقدورنا أن ننصفها نحن من كل وجه بمقال واحد ولكنا على هذا سنحاول أن نصف بعض ما قامت به فى تكوين هذه اللغة وفى تمكين رصيفنا القديم من ارسال بيته هذا الدائر على الالسنة الى يومنا الحاضر . وما الى ذلك من سبيل بغير أن نرد عقربى الساعة بضع مئات أو آلاف من السنين علمها عند ربك ، وأن نكر راجعين الى تلك الأيام البعيـدة التى كانت الجماعات الانسانية فيها ساذجة . أيام كان مكتوباً على الرجل أن يخرج للصيد والقنص ، والقتال أيضاً كما يقول شاعرنا ، وعلى المرأة أن تقيم فى مكانها لتعد الطعام ولتغزل وتهيىء الجلود وتصنع الأوانى وتأتى بالماء وتبنى الاكواخ وترضع الأطفال وتقوم على تربيتهم بينما يغشى الرجل الأحراش والأدغال والغـابَ ويفترع الجبال و يتحدر الى الأنهار

ولنفرض الآن ان الحرب نائمة وان الجماعة تزاول شتى أعمالها فى أمن وسكون . فى مثل هذه الأوقات يصبح الرجل فيحتمل أدواته كائنة ما كانت ويذهب الى الماء لصيد الأسماك أو يصعد فى الجبل أو يمضى الى الغابة ليقنص الحيوان . وقد يخرج الرجال فى طلب الصيد بأنواعه زرافات ولكنهم لا يلبثون بطبيعة الحال أن يتفرقوا و يتشتتوا ولو قليلاً ، و يضطرهم ما هم فيه الى الصمت أكثر

الوقت لأنهم وهم يجوسون الأرض على الطريدة مكرهون أن يخففوا الوطأ وأن يمنعوا الجلبة وأن يكتفوا حين يريدون التفاهم فيما بينهم باللمح والاشارة على الأكثر حتى لا يزعجوا الطير أو الحيوان فيفلت منهم وينجو ، والمفاجأة هنا نصف الظفر ولا يكون الكر منجحاً الا بتحريها وقديماً قال ابن الرومى

وليكن الكر على غرة   والصيد فى مأمنه سارب

ومن أجل هذا لا يحسن بهم أن يتلاغطوا كأنهم فى سمر فلا معدى لهم عن الصمت فى غاراتهم ولو كانوا كردوساً متلاصقاً ليصيبوا الغرة ويقعوا على الفريسة . وليس معنى ذلك انهم لا يتكلمون قط بل معناه أنهم أكثر ما يكونون فى صمت يتواصون به ويلزمونه حتى يقضوا وطرهم ما ساعفتهم القدرة على الصمت وأطاقوه لأن طبيعة المهمة تقتضى ذلك وتحتمه الى حد كبير . أما قبل أن يبلغوا مكان الصيد فهم يتلاغطون ويتضاغون ويعربون ما استطاعوا عن آمالهم التى يرجون أن يبلغوها فى يومهم وعما يقدرون لأنفسهم من اللذة والمتعة فى السعى وراءها وعما يتوقعون من سرور نسائهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملأى وعياب محشوة وقامات معتدلة ورؤوس مرفوعة ، وقد يصف بعضهم لبعض ما كان فى يوم سابق وربما تضاحكوا بواحد منهم عثر وانكب على وجهه وهو يعدو وراء الطريدة أو رفسته فخر الى الأرض أو انكسر به غصن فهوى وتدحرج ، وأما وهم عائدون فقد يغنون ويرقصون سروراً بما أصابوا

ويتحدثون بفعالهم — هذا بسرعته وذاك باحكام رميتــه وذلك بجرأته ورابع بكثرة ما أصاب وهكذا حتى اذا بلغوا محلتهم ألقى كل منهم حمله الى المرأة وبه من الزهو ما يصده عن الكلام أو من التعب ما يغريه بالانصراف عنه والتماس الراحة . ولكنهم فى اثناء الطرد والصيد يصمتون اكثر الوقت كما قدمنا ولما كان الصـــيد يستغرق اكثر النهار فهم اكثر النهار قليلو الكلام

وندعهم فى صيدهم ونعود الى المرأة . فاذا بها بين أترابها لا يضطرها عملها الى الوحدة . فهى على الأغلب تباشره فى جماعة منهن قليلة أو عديدة وفى يد كل منهن عملها كائناً ما كان وهن فى اثناء ذلك لا تستريح السنتهن فى حلوقهن ولا تنقطع عن الجرى . كعادة النســاء فى كل عصر ومصر . فان النساء اكثر كلاماً من الرجال . وقد يجلس الرجل الى صاحبه وينقضى اكثر الوقت بينهما وكلاهما مطبق الفم . أما النساء فهذا هو المستحيل عليهن ! ومتى جلست امرأتان فى هذه الدنيــا صامتتين ؟ ان المرأة لا تصمت ولا تكف عن الكلام إلا اذا عجز لسانها عن الجرى وانقطعت أنفاسها . لأن الكلام لا يكلفها نصباً عقلياً، وان الرجل منا ليشهد مجالس النساء فلا يسعه الا أن يعجب لهن من أين يأتين بمادة الحديث ! لقد كنت أعد نفسى فى الرجال مهذاراً كثير الثرثرة فاذا باحدى السـيدات الفضليات تزعمنى صموتاً ! ؟ وما اكثر الرجال الذين

يشكون من متاعبهم العائلية بعجزهم عن مواصلة الحديث الفارغ وتقصيرهم فى واجب الثرثرة !

واللغــة الكلامية انما تتقرر وتصقل الفاظها بالتكرار . وليس يكفى أن ينطق فرد بكلمة أو ينحتها و يستعملها مرة وانما تشيع اللفظة ويعم استعمالها بتكرر الحاجة اليها وكثرة ترديدها من جراء ذلك . ولقد نحت جونسون الكاتب الانجليزى المشهور مئات من الالفاظ من اللغة اللاتينية واستعملها فى كتاباته وعدل بها عما يؤدى معناها من الكلمات الانجليزية المستعملة وآثرها عليهــا لموافقتها لمزاجه ولما فيها من الطنطنة المرضية لذوقه

ثم مات جونسون وذهب فى سبيل من غبر فدفنت الفاظه التى نحتها معه ولف عليه وعليها كفن . ولم يعش بعده منها الا النزر الذى سد حاجة وملأ فراغاً . وكم فى لغتنا العربية مثلاً من الفاظ يخطئها الحصر لا تدور على الألسنة ولا تجرى بها الاقلام ؟ كم يستعمل حتى أشد الناس حذلقة من هذه الألفاظ الميتة ؟ ما حاجتنا الى خمسمائة اسم للسيف أو صفة له على الأصح ونحن لا نكاد نذكر السيف ؟ فموافقة اللفظ للحاجة وتكرر استعماله ولوكه مرة بعد أخرى . هذا هو الذى يذيع اللفظ و يشيع استعماله و يجعله مادة حية فى اللغة . وفضل النساء فى ذلك عظيم . هن الثرثارات اللائى يخدمن اللغة ويقررنها بالتداول و يشعنها فى الجماعه و يدرنها على ألسنتها و يثبتنها فى الذاكرة يجيء اليهن الرجل بقنصه و يقص عليهن ما جرى له فى يومه وقلما

يعيـد القصة ولكن المرأة تحكيها لا ترابها مائة مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة ، تارة بأفاضة وأخرى بايجاز وطوراً توشيها بأخيلتها الحسية وطوراً تطرزها بوصف هيئة الرجل وهو يلقى قصته . أو بنعت ما تقدره فيه من المزايا والصفات وتخرج من ذلك وتستطرد الى مائة موضوع آخر قد يعيي الرجل أن يلمح الصلة التي تربط هذه المواضيع بالحكاية الاصلية . أضف الى ذلك ما لا تفتأ تتحدث به عن عملها أو أعمالها هي وأكثرها فى الاطوار الاولى من نشوء الجماعات الانسانية صناعى أو أدخل فى باب الصناعة مما عداه . والاطفال ؟ أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأول الى المرأة ؟ هى التى تغذى الطفل وتنشئه وتعلمه الكلام بما لا تنفك تصبه فى أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها معنى . وتفعم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغـة وتعدله اول ما يلزمه من الذخيرة فى رحلة حياته . فليست المرأة فقط عاملاً لا يستهان به فى تقرير اللغة الكلامية وصقلها بل هى أيضاً أول معلم نتلقى هذه اللغة عنه ونحذقها منه

ولا نريد أن نقف هنا أو نقتصر على هذا بل نجاوزه ونقول أن المرأة من أكبر عوامل التوحيـد فى اللغات أو التشابه بينها . ذلك أن المرأة لم يكتب عليها الحرب والقتال كما يقول شاعرنا القديم . وانما كتب ذلك على الرجال دونها . ولم يتصل بنا ولا قرأنا أن النساء فى أى عصر كن يقاتلن الى جانب الرجال ويتولين الحرب مثلهم . ولكنهن مع ذلك كتب عليهن السبي . يلتقى الجيشان ويقتتلان

ما شاءا حتى يقهر أحدهما خصمه . وليس يندر ولا سيما فى الحروب القديمة أن يعمل الظافر السيف أو ما يقوم مقامه من أدوات الطعن والضرب فى أقفية المنهزمين وأن يتعقبهم الى ديارهم وان يقتل منهم حتى من يضعون السلاح ويسلمون . ولكنه ندر أن يقتل المنتصرون النساء وانما يسبونهن ويحملونهن معهم فى عودهم الى محلاتهم فى جملة ما يحملون من غنائم الحرب ويقتسمونهن اقتسام غيرهن من الأسلاب

وقد كانت الحروب فى الأزمنة السابقة اكثر وإن لم تكن على هـذا افتك أو أهول منها الآن وقل أن كانت تنتهى حرب بدون سبى . بل لعلنا لا نخطىء جداً حين نقول أن الرغبة فى السبى كانت من اكبر مثيرات الحروب وبواعثها . فهل يحسب أحـد ان الخود اللواتى كن يسبين فى حروب آبائنا الأقدمين كانت تقطع السنتهن وتقتلع من أصولها أو توضع على أفواههن الكمائم . ؟ لسنا نظن أحداً سيدعى ذلك أو يقول به . وكيف كان يحدث التفاهم بين المسبية ومن صارت من نصيبه ؟ كان يستعصى ذلك فى أول أيام المعاشرة وكانت الأشارات والحركات وملامح الوجه ونظرات العين تغنى فى ذلك بعض الغناء ثم يعتاد كل منهما أن يقرن اللفظة التى يسمعها بالحركة أو الأشارة أو النظرة أو غير ذلك مما يصحبها ، ويفهم منها ما يستخلصه من اجتماع ذلك . فيزيد محفوظه ومحفوظها ويدخل فى لغتها ولغته الجديد من الألفاظ والأوضاع وطريقة التعبير ويؤدى ذلك مع التكرار الى التقارب من بعض النواحى بين اللغتين

ولقد ذكرنا الحرب ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة لأحداث هذا الاختلاط والتشابه بين اللغات . فقد كانت الهجرة كثيرة والخطف مستمراً ولما كانت المرأة بطبيعتها أو بطبيعة وظيفتها أكثر كلاماً من الرجل وكان نطاق أحاديثها أوسع ومادتها أوفر وكان سببها أعم لذلك كان من المعقول ان تكون المرأة صاحبة الفضل الأكبر في بذر الالفاظ وما تنطوى عليه من الاحساسات والخواطر

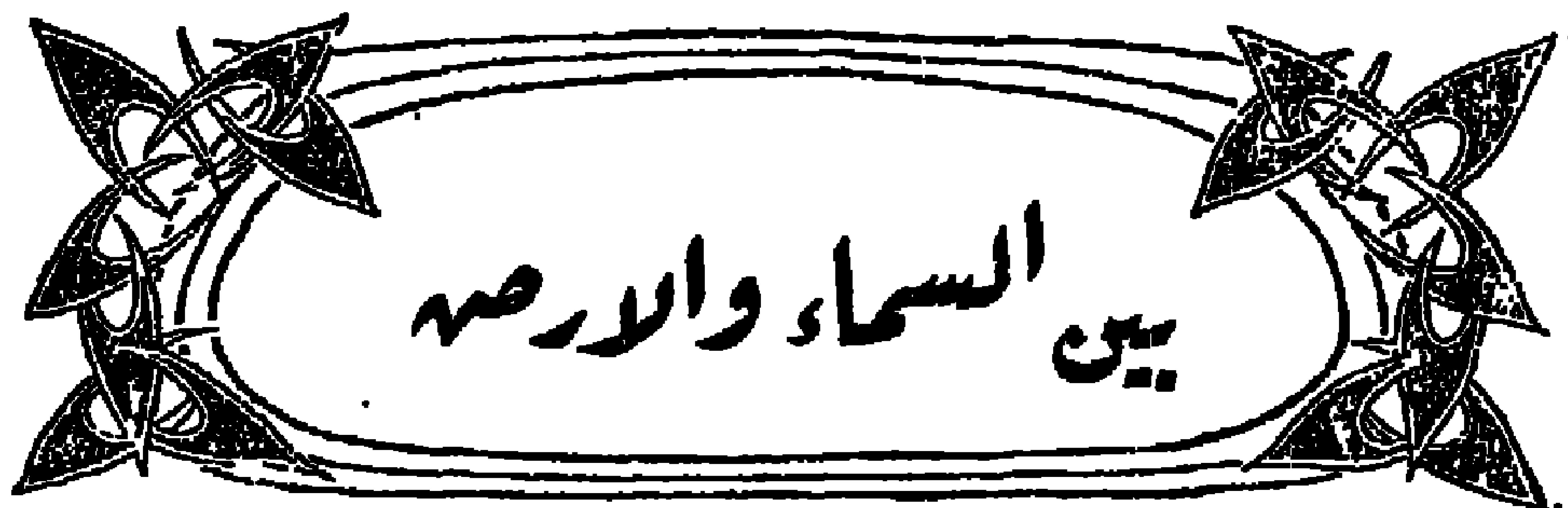
وحتى هنا لا نريد أن نقف . فانه ليس يكفى أن تخترع اللفظة أو تنحتها أو تشتقها لما تمس الحاجة الى العبارة عنه . فان الاحتفاظ بهذه اللفظة الجديدة لازم للغة مثل اختراعها أو اشتقاقها . وليس تغنى اللغة وتبقى لها ثروتها الا بهذا الاحتفاظ ولا أعون على ذلك من المرأة . . ولا تنس أن كلامنا كله دائر على الماضى البعيد لا على الحاضر ولا الامس القريب . وكما أن المرأة كانت احس معاجم اللغة، كذلك كانت أداة المحافظة عليها وتوريثها الاجيال التالية . ذلك أن المرأة هى التى قامت بالصناعات اللازمة للأنسان بينما كان الرجل يتولى الصيد ويباشر الحرب . وهذه الصناعات بقيت على الأيام لأنها من ألزم اللوازم الأولية وقد طرأ عليها تحوير كثير وتولدت منها أخرى وتعددت وتنوعت ولكن الحقيقة بقيت دون أن يلحقها تغيير. وهذه الحقيقة هى أن المرأة هى مخترعة الصناعات الاولى . ومن غير المعقول كما أسلفنا أن تزاول المرأة أعمالها يوماً بعد يوم دون أن يتحدر لسانها بالكلام على ما تفعل . بل المعقول والذى لا يقبل سواه

هو أنها كانت تنهضب بالكلام وتسح بلا انقطاع وأنها سمت الأشياء أسماءها وأوجدت لها نعوتها وافتنت فى ذلك وما هو بسبيله الى المدى الذى استطاعته . ولما كانت أعمالها مستمرة متوارثة فقد ثبت معها ما تعلق بها من الكلام وصار جزءاً أصلياً من اللغة وأتيحت له فرصة البقاء وقديما لا حظوا أن المرأة على فرط شغفها بالجديد وجريها وراءه وتعلقها به ، أكثر « محافظة » من الرجل . ولعله ليس من الخطأ الشديد أن تقول انها كالذاكرة للنوع . وحسبك أن تتأمل فضلها فى المحافظة على الأساطير والخرافات وأغانى الجماعة وأقاصيصها وحكاياتها . ومن من الرجال يحفظ مثل ما تحفظه المرأة من الأغانى والاساطير ؟ أن القارىء خليق ان ينصف المرأة من هذه الوجهة اذا تفضل وذكر جلساته الى احدى العجائز فى طفولته وصدر أيامه والحاحه عليها فى أن تقص عليه بعض ما تحفظ من الاساطير والحكايات المروية عن العفاريت والمردة والوحوش وما الى ذلك . وهى التى تغنى الطفل لينام أو ليكف عن البكاء أو ليهدأ وتسكن نفسه كما لا يحسن الرجل أن يفعل ونحن الآن فى عصر المطابع فلا يسعنا أن تقدر على وجه الدقة قيمة ذلك فى العصور الخالية قبل أن توجد المطابع بل قبل أن يهتدى الانسان الى طريقة يكتب بها الكلام ويدونه . فى تلك العصور كانت المرأة هى ذاكرة الجماعة ومكتبتها وديوان أخبارها وأغانيها وأمالها وحكمها أن كان لها من ذلك شيء قليل أو كثير . وما زلنا الى الآن نرى المرأة أحفظ للامثال .

وأشد أحاطة بها . واذا تدبرنا ذلك كما ينبغي أن نتدبره أفيكون مخطئا من يقول أن المرأة كانت من أكبر العوامل فى المحافظة على اللغة وفى صون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو تبعاً لذلك ؟

هذا وجه أو وجوه مما كان للمرأة من الفضل على اللغة . وثم وجوه أخرى بعضها يسهل الغوص عليه والبعض يشق مطلبه ويعز مناله . ولسنا نستطيع أن نلم بكل أوجه البحث فى مقال واحد ولذلك نرجيء التتمة ولا سيما الفرق بين لغتي الرجل والمرأة ، الى فرصة أخرى





كأس على ذكرى

قالت الفتاة للفتى — ان كان ابن خمس وثلاثين يعد فى الفتيان

« هذا أنا . . . قد جئت . . »

فمد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

« أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟ »

« لا كبر ولا جفوة . . . وانما أنا مغيظة »

« منى ؟ »

« كلا ! »

« ممن اذن ؟ »

« لماذا تسأل ؟ . . . من نفسى . . . »

« مسكينة يا فتاتى ؟ وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف »

« لست آسفة على شىء . . . وهذا ما يغضبنى ! ولو وجدت للأسف مساً لكبرت فى عين نفسى . . »

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه — وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته ،فقال:

« أنت فى عينى كبيرة وجليلة »

فلان ما كان متجمداً من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها، ورقت حاشيتها وانسجم صوتها ، ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه وأقبلت عليه تسائله أصحيح ما يزعم ؟ أحق انه يكبرهاوسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟

فقال ، وتناول يدها فى يده :

« وما ذا فعلت يا فتاتى أو ماذا تفعلين الآن ا كثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتى تحت عيون هذه النجوم ؟ »

فرفعت وجهها اليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت :

« أو هذا كل شيء ؟ »

« كل شيء الآن . . . الى الآن »

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهولة المتلاحمة النجوم ، ثم قالت :

« ماذا كنت تريد ان تقول لى ؟ »

« متى ؟ »

« ونحن على الطعام ؟ »

فاربد وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ، ولم تدر ماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هى تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال:

« كنت أريد أن أقول ان هذا لذيذ » بابتسامة متكلفة

« ما هو ؟ »

« كون يدك فى يدى ! »

فانتزعتها وقالت :

« لقد أنسيت أنها فى يدك »

« إنسيها مرة أخرى ! »

« لا أستطيع »

« تناسيها أذن ! »

« كلا ! »

« هل من سبب ؟ »

« لا ! » ممطوطة طويلة

وتناول يدها وسكتا مرة أخرى وتكلم بينهما الهوى

* * *

وقالت « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

« لن تفعلى ماذا يا فتاتى ؟ »

« ألقاك هكذا ! هى الاولى والاخيرة ! »

فابتسم صاحبها ابتسامة فيهامن الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب وقال

« لا أدرى أى سحر ضربته علىّ حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم — فى كل يوم أعالج ان أرد نفسى على مكروهها ثم ما هو الا أن أراك ، أو ان تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك ، ولا يبقى لى منى الاك ! »

« وماذا تريد أن تصنع بى ؟ »

« ماذا ؟ أريد ان أحملك معى واخفيك حتى عن عيون اخوتك ! هــذا ما أريد ! أن رأسى ليدور حين أرى أخاك او ابن عمك او ابن خالك او أحداً من الخلق ينظر اليك ! ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين ، وانى ليخيل لى أحياناً ان تناسخ الأرواح حق وانك أنت برونهيلده بعينها يحيط بها سور النار الذى حولها »

« ليتنى كنتها ! ! ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ! تمتحن به من ينشد قلبها ! »

« بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار »

« ولكن ألا تعرف ان ما تبغى عسير لا يقع فى الامكان ؟ فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟ »

« أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه ان إهلك حمق وانهم يضحون بك فى سبيل . . . لا تضعى يدك على فمى ! دعينى أتكلم ! انهم يحولون دوننا تقديماً لغيرك عليــك وقد علموا انك لى

لا محيد عن ذلك ، عن رضى منهم أو محمولين على مكروههم ! . . »

وفى هذه اللحظة دفعتها الريح الى صدره فاسكره قربها وأخذ منه شذا شعرها . فضحك ضحكة عصبية ورفع وجهها اليه وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كأنما كان هـذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج ان تفلت من عناقه ويأبى هو ان يدعها

« انك . . . »

وعضت شفتها وردت اللفظة التى همت بها

« أنا أى شىء ؟ قوليها ! اقذفى بها فى وجهى ! »

« وحش ! فظيع ! هذا أنت ! دعنى ! »

غير أنه لم يدعها بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجذل وسكر حتى همست فى أذنه

« لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم »

« لم تعنه أبداً بالطبع »

وقبلها ثانية

وقالت وقد تخلصت من عناقه

« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟»

« أنا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا . . . »

« يا وحش ! قوليها ! »

« ولكن أليس لك ضمير ؟ »

« ضمير ؟ ياله من سؤال ؟ بالطبع لى ضمير ! »

« لا أراك تحفل به الليلة ! »

« أنا فى شغل عنه ! قبلينى ! »

« أى فكرة ؟ ؟ »

« أفعلى »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل ! قلت مستحيل ! »

« أذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا »

« لم لا ؟ الا يسرك أن تكونى محبوبة ؟ »

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل الى شفتيها ، فهل هـذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين ؟ انها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً او قليـلا ! فياليته من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الارادة والقدرة على ضبط نفسها ، وعلى انها لم تعد تكترث لذلك او تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها !

« أمصغ أنت ؟ »

« نعم » بصوت خنقته عربدة الشفتين فى نحرها . »

« انى اعلم انى وقعت من قلبـك . لا شك فى ذلك ، والا

ما فعلت الليلة ما فعلت . ولكن أية فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عنى وتعلك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل أدكارك لى . ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلني هكذا ؟ انه الزهو والغرور والانانية . .

« بل قولى أنه الحب . . »

« هو هذا وذاك ، ولكنى أردت ان تذكرنى . . »

« أو تحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟ »

« أخشى ! »

« لماذا ؟ »

« كل أمرىء ينسى القبلة بعد أن تبترد شفتاه »

« من علمك هذا يا . . »

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت

« دعنى أذهب الآن »

ولكنه ضمها وهو يقول « أدعك ؟ كلا ! انا ايضاً أخشى أن تتسربى فى الهواء اذا تركتك »

« كلا ! لا تخف »

وعاطته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فسألها

« أواثقة أنت انك تريدين أن تمضى ؟ »

« كلا ! ولكنى واثقة انه « يجب » أن أذهب »

فخلاها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت اليه وهى تقول « لا يشق عليك ما يقول أهلى . وأيقن أنى . . على . . ولكن ليتنى اكون أنا على يقين من وفائك ! »

ومضت أخف من الفراشة !

* * *

قال صاحبى

« أنا صاحب هـذه الذكرى . وهى كل ما خرجت به . وانى لأحييها فى كل شهر مرة — فى الليلة الظلماء المفتقدة البدر ، لأن ليلتنا كانت حالكة ، ولان الليل أوقع ما يكون فى صدرى حين أرسل اللحظ اريد لأخرق به أحشاء الظلماء فتشف لى عن نجوم السماء ويرتد عما دونها كليلا حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عندى ، حين تتنقل العـين فى اجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا . . . كذلك كانت ليلتى تلك وكذلك أريغ ان تكون ذكراها فى مثلها . فأصعـد الى السطح واتكىء على السور وانظر الى السماء كما كنا ننظر . هى مفتونة بجمالها وأنا يكاد يسحقنى الرعب اذ أجيل عينى فى فيافيها اللانهائية وأقول لها فيما أقول كانما كان يعنينى أن أنغص عليها متعتها

« ثقي ان هذه السماء ليست مجعولة للانسان مهما تكن علة وجودها . وانه لا شيء في الارض او في السماء مجعول لهذا المخلوق الذي يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس اقدر من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته او لا شيئيته اذا شئت»

فتدير الى وجهها وتقول وهي لا تفهم حرفا من كلامي : « ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟ »

فأقول « يوجد — ان صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شموس ، وتوجد اوقيانوسات من الفراغ لا آخرلها يجمد الفكر كلما حاول ان يتصورها . هذا مايوجد!»

فتصمت ولا يبدو عليها انها فهمت فأمضي وكأني أحدث نفسي، وقد شعرت فجأة ، على كل حبها ، كأنما بيني وبينها بعد ما بين الارض والمشترى :

«وهذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ،ويهول الخاطر أن يقذف به في اجوازها اللانهائية . . . ليس جمالها الذي يسحرك بالخالد ولا الباقي ! حتى هذه مرجوع وهاجها رماد ! انظرى هذا النجم الذي يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر ! لقد كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعي الرثاء ! ! وتصورى هذه النجوم كلها قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! ! تصورى عقلك يصطدم في ظلمة السكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! ! تحي

عينك ! غضى بصرك عن السماء اذا ان ردت انستبقى بشاشة نفسك!»

فتفزع وتقبل علي وتسند رأسها الصغير الى كتفى هذه وتريح خدها على جانب صدرى وتعلق يسراها بكتفى الاخرى فأمسح لها شعرها حتى يزايلها الخوف ، وانى لأراها الآن كما كانت فى تلك الليلة وان كنت أنا هنا وهى هناك ، و بيننا ما بيننا من الابعاد . وآه لو ان كل ما بيننا فرسخ او فراسخ ! اذن لأمكن ان نبتسم ! وقد يعزينى – لو ان هذا مما يعزى – اننا ، سعدنا او شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا وتخفق فيها قلوب اخرى ، وترهق عقول جديدة وانها ستشهد أشجاء طريفة تُندب ومسرات ومباهج حديثة تُطلب و يستعز بها ، على حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب !

ولكنى أحيي هذه الذكرى على خلاف ما تتوهم ، فان الهواء هنا لم يهف باسمها ولا خفق على موجاته الشدو بهفاتها ، والعيون التى تجتلى هذا الفضاء الرهيب لم تتلاق مع لحاظها ، وظلها لم يرتم على هذه الرمال ، وقدمها الدقيقة لم تطأ ذراتها – كلا ! ما من شيء هنا يعرفها او يحمل ذكرها على صدره كما أحمل على صدرى حبها ، فسبيلى أن أعتمد على سور السطح واظل كذلك حتى اعود وقد شاطرت ما حولى عدم الشعور بها ! »

ثم امسك وقال بعد اطراقة قصيرة :

« والآن فلنشرب كأسا على هذه الذكرى»



ليسمح لى القارىء أن أكون كما خلقنى الله ، وأن اسوق اليه الكلام على طريقتى التى أوثرها والتى تلائم مزاجى ولا تنافى مابنيت عليه . وقد شاء ربك أن يخلقنى بعين لا تفتأ كلما وقعت على شيء تنثنى مرتدة الى نفسى تدير فيها حملاقها مفتشة باحثة منقبة ثم يهتف بى هاتف من ضمير الفؤاد أن هات « المسطرة » فأمد اليها يدى وأذهب أقيس الابعاد بين ما كنت وما أنا اليوم .

وقد اتفق لى أمس أن ذهبت الى « ادارة الجريدة » فى شأن لى فجاءنى من وكلت اليه الاشراف على تحريرها فى غيبتى يسألنى أن اراجع كلمة كتبها أحد الزملاء ، فيها أشارة الى اصطلاح نحوي فلما كان الليل آويت الى فراشى وفى مرجوى أن يجيرنى النوم من أوصاب ما أعانيه فرأيت فى منامي ،وقلما أذكر احلامى، كأنى بلمتى التى وخطها الشيب — قد عدت تلميذاً ، وكان شيخ من اساتذتى ، رحمه الله ، يختبر الفرقة فى « المفعول المطلق » ولكن الاستاذ كان فيما بدا لى أشبه برئيس جلسة منه بمعلم صبيان ، وكان كلامنا نحن التلاميذ « الكبار » أشبه بالخطب والمناقشات البرلمانية .

ثم أفقت من حلمي وابتسمت ، فقد ذكرت بحلمي هذا الذى جره علي زميلي ، أستاذاً لى فى التعليم الابتدائي أعياه أن يفهمنى « المفعول المطلق » ويوقفنى على « سره » ويحل لى « لغزه » وكان كلما عرضت مناسبة ، يقول لى « يابن عبد القادر »

فأقول « نعم »

فيسألني : ما هو المفعول المطلق

ولم يكن من عادتى أن احمل شيئا — وبخاصة هذا المفعول المطلق — على ظهر قلبي من كتب التعليم . فكنت أقف جامداً ، وفمى مفتوح وعينى الى وجهه ، ولسانى كأنما استل من حلقى ، ويدى تغمز جاري الحافظ الذى لا يهمل حتى يهمس بالتعريف المطلوب فألقيه إليه وأهم بالجلوس وقد ظننت انى نجوت ، وكان يعرف انى محتاج الاذن فيسألني الاعادة فأتلعثم وألعن من أصبحت على وجوههم ! وقد يتجاوز عن الاعادة ويقول « مثل » وهنا الطامة الكبرى !

« مثل » !؟ وكيف آتيه بمثال لما انتهيت منه الى اليأس من فهمه ؟ ! وكثيرا ما كنت قبل ابتداء الدرس اتفق مع جار لى ابله على أن ينهض فى أثرى ويجيب عنى اذا اعيانى سؤال غير منتظر فكان يبر بوعده ويفعل فيتحول اليه سخط المعلم ، ويحل به وحده غضبه ، فأدعهما وأقعد وانجو بهذه الحيلة التى لم تكن تجوز إلا على هذا الجار المغفل !

مر ببالى هذا وما إليه من حوادث الصبا على عهد التلمذة ، كما

تمر أشرطة الصور المتحركه على عين الناظر ؛ فقلت لنفسى — وأنا مستلق على فراشي — إن من حق المفعول المطلق أن يكون له هذا الشأن فى صدر أيامى فقد كان له شأن ضخم فى حداثة الدنيا أو من عليها من الأدميين وكما أن آباءنا الاولين لم يعرفوه الا بعد عصور لا يعلم طولها إلا الله ، من معاناة أزم التعبير عما فى نفوسهم كذلك انت « يابن عبد القادر » لا عيب عليك اذا كابدت منه نصباً

والواقع ان هذا « المفعول المطلق » يمثل فى تاريخ النشوء اللغوى خطوة انتقال اتسع بعدها الافق ورحب على اثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المغلقة . واللغات ، كما يعلم القارىء أو كما لا يعم ! — لم يجدها الانسان تامة ناضجة مستوفية كل ما يحتاج اليه الرجل للعبارة عن مراده ، وانما نشأت عل الأيام واتسعت شيئاً فشيئا على قدر الحاجة وهى لا تزال الى الآن —وستظل— تنمو وترحب وتحيط بما كانت تقصر عنه أداتها . ومن شاء أن يقدر فضل المفعول المطلق على اللغة وعلى العقل الانسانى أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر اليها كيف تعود ؟ أو الى اى حد تضيق ؟ وقد يتعذر تقدير ذلك على وجه الدقة لأننا الآن ميراث واحد لها جميعاً . ولكن مادلالة هذا ؟ ولأى غرض نورده ؟ دلالته القريبة أن الشعوب التى تتشابه لغاتها فى هذا وغيره كانت قد اجتازت مرحلة البداوة وقضت أزمنة مديدة فى ظل السلام قبل ان تتفرق ويذهب كل منها فى ناحية وتكتسب كل لغة على اثر هذا التفرق شخصيتها وطابعها الذى

تماز به . فنشأت فى كل شعب أجيال نحتت لنفسها ما تحتاج اليه من الفاظ الحرب والمغامرة

* * *

دارت بنفسى هذه الخواطر وانا راقد ، وعينى تنظر من النافذة الى القمر الذى ينام ضوءه اللين على صدرى فمددت يدى ، الى المنضدة المجاورة وقد انساني النظر الى القمر اني لم أعد اعنى باعداد الورق والاقلام الى جانبي قبل أن أنام واني انقطعت منذ سنين عن استيحاء بنات الليل واستلهام طيوف الظلماء ؛ وانه ردني عن ذاك وصرفنى عنه من جعل حاجتى الى هذه الزجاجات من الدواء



الذكورة والانوثة

١٠ فبراير . . . . الناس فى هـذه الايام آنق أزياء ، وأنظف ثياباً ، وأبهج بزة منهم فى أى عهد مضى . ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاماً كنت أرى افندياً يلبس طربوشـا مبطنا بالخوص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الاستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بنيقتها على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، حتى الاحذية كانت أكثر ما تكون سوداء ، ولم تكن الاقمصة الافرنجية تتعدد ألوانها ، وكان الاغلب فيها أن تكون بيضاء لامعة قوراء ، ولم يكن الشيوخ يعنون — على الاعم — باحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان او الجبة على أبدانهم او بتحرى أن يكون لون « الحزام » مجاوباً لصبغة القفطان ، او بأن تكون لمة « الشال » على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن اذا برزن الى الشوارع يصد العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها — زف يبعثره الريح فالآن صارت العين تتعب من النظر الى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات

والسهرات . نعم لا فرق الآن مثلا بين أزياء المحصنات وغيرهن ، ولكن لا بأس ، سيتميزن بغير الأزياء ، وصحيح ان الرجال والنساء تقاربوا — حسن أيضا ! ليس فى الامكان أبدع مما كان !

* * *

١١ . . . لا أدرى ممن سمعت ؛ او أين قرأت هذه العبارة وهى أن الله سبحانه وتعالى وكل الى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك ولكنى أحسب الملك الموكول اليه هذا الواجب — ان صح الخبر — قد جدّت على صوته نبرةُ تهكم لاذع — علينا نحن بنى آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل ان النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهن ، وان الرجال يحلقن — معذرة ! فسيختلط الامر بكرهى وكرهكم — يحلقون شواربهم ولحاهم ويتخذون من الثياب مالا يخلص الهواء بينه وبين الجسم — أمن أجل ذلك يكون الامر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر ؟ ان الصحيح فسيولوجيا هو أن الآدمى خليط من عناصر الذكورة والانوثة ، وان نسبة هذا الخليط لا معروفة ولا محدودة ، وان درجات التفاوت فيها كثيرة وان هذه العناصر يقوى بعضها أو يضعف على مدار الحياة . فلكل واحد من الذكور حظ ضئيل او كبير من الانوثة ، ولكل انثى

نصيب كذلك من الذكورة . ومن هنا يكون الشاب الذى هو فى رأى العين وفى نوع احساس النفس به وتقديرها لصفاته ،أشبه بالانثى، ومن هنا أيضا النساء المترجلات او اللواتى هن بالرجال أشبه واليهم أقرب .

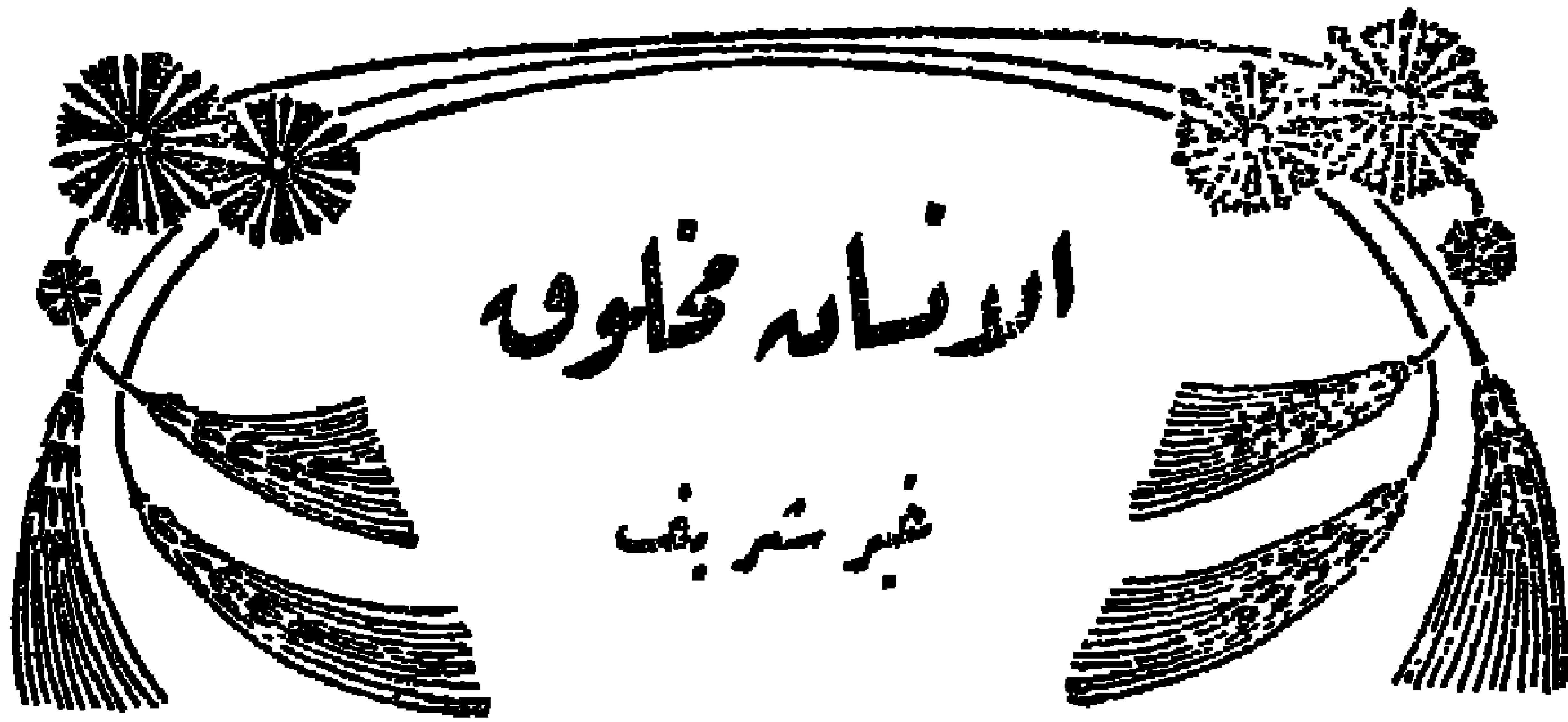
والمعضل الذى يعنينى أن احله هو : هل فقد الرجال ما كان لهم فيما مضى من القدرة على اجتذاب المرأة والاستيلاء على هواها بما كان لهم من صفات طبيعية ؟ أم أصبحت الرجولة التى كانت تجدى عليهم قديما فى المعركة الجنسية لا تنيلهم شيئا الآن؟ ام ضعف احساس المرأة بهذه الصفات وانحط تقديرها للمزايا الجنسية الطبيعية ؟ او اجعل السؤال من الناحية الاخرى : شهدنا زمنا كانت فيــه المرأة اذا بدا منها خنصرها من تحت الملاءة او ما يماثلها ولمحته عين الرجل شهق وفهق وانتابته كالحمى ،فالآن تبدو له نصف كاسية– او نصف عارية– وما استتر من جثمانها فى حكم الظاهر من فرط الدقة فى جعل التفصيل كفيلا بعرض المحاسن وجلو المفــاتن ، ومع ذلك لا يكاد الرجل يزيد على الاعراب عن الاعجاب الفاتر ، فهل تبرز المرأة الآن على هذه الصورة المجلوة لانها تحس أن صفات الرجولة فى الرجل قــد ضعفت ؟ أم هى بدأت تتجرد وتتزين شيئًا فشيئًا وسايرها هو فى احساسه بجلوتها فألف هذا التجرد والتزين درجة فدرجة فهى أبداً تعالج أن توقظ احساسه بالجديد فالأجد وهو لا يكاد يألف جديداً حتى يفتر عن اجابة ما يهيب به منه ؟

* * *

١٢ . . . نسيت أمس الحرب العظمى وما أفقــدت الرجال وكلفت جنسهم من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الاجيال . وكيف احتاج الامر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن وكيف تحفظن بالمنزلة التي رقين اليها ولم ينزلن عنها ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب الى الشرق كالعادة

مثــال لتأثير الحرب .... موافقة مجلس العموم الانجليزى بسهولة وسرعة على تخويل المرأة حق النيابة عن الامة كالرجل . وقد ظلت النساء فى انجلترا يجاهدن أعنف جهاد بضع عشرة سنة لينلن حق التصويت فقط ! الخ الخ





فبراير ١٥ .... يخيل لى أن الشرف والنزاهة وعفة اليد وسائر ما يجرى هذا المجرى ، مما لم يركب فى طبع الانسان ولم يفطر عليه ، ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان الانسان بطبعه مخلوق غير شريف !! والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من الاوامر والنواهى والاقاصيص وما اليها مما يقصد به الحث على هذه الفضائل ومجانبة اضدادها . ولو أن الانسان كان كذلك بفطرته وكان الاغلب والاعم فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيها شريفا لما احتاج الامر الى كل ما فى هذه الكتب مما أشرنا اليه . وكثيرا ما خطر لى أن اسأل : لماذا اتفق أن تجد من يحضك على مزاولة هذه الفضائل وأخذك نفسك بها ولا تجد واحداً يأمرك بخلافها مثلا : فيقول : اذا استطعت ان تسلب ما فى يد غيرك فافعل ! أو احذر أن تدع ما فى جيوب الناس يبقى فى جيوبهم ولا ينتقل الى جيبك ! الخ الخ ! أليس ذلك لان الأصل فى الانسان هو التطلع

الى غير ماله والرغبة فى غصبه أو انتهابه أو الاحتيال على استلابه فالحث عليه تحصيل حاصل ؟

وأحسب أن من الأدلة على ان الاصل فى الانسان هو هذا ، ان فى كل مصلحة كبيرة من المصالح — حكومية أو غير حكومية — نظاماً دقيقاً للمراجعة يضطر الناس الى الأمانة أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ويحول دون من تحدثه نفسه بالاختلاس . فأكثر الناس لا يختلسون لا لأنهم اشراف أمناء نزهاء ، بل لأن السبيل مكتنظة بالوعور والعاقبة غير مأمونة . ولست ممن يستطيعون أن يصدقوا أن هذا الصراف الفقير الذى لعله ترك بيته وعياله دون ما يكفى لقوتهم ، يعف عن رضى بقسمته وقناعة بحاله ، عن قبضة مما يدخل الخزانة التى هو قائم عليها وفى يده مفاتيحها .

ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل انسان كل انسان . ولكن من العسير احيانا أن تركب الترام الى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة . وأشق من ذلك كثيراً وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة . وانى اعترف انى اذا كنت على شىء من الشرف والذمة والأمانة والنزاهة فليس ذلك لأنى خلقت متحلياً بهذه الفضائل ، بل لانه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والاقدام ، أو بعبارة اخرى لان نصيبى من الجبن فوق المتوسط . فليس لفضيلة فىّ انى لا أنشل ما فى جيوب الناس اذ الاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لأنى أجد نشل الجيوب

أشق علي وأبعد مطلباً من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها. وكثيراً
ما تخايلنى التحف الثمينة فى الحوانيت من وراء الالواح الزجاجية فاشتهى
ان تكون لى بلا ثمن، واتمنى لو استطعت ان أمد اليها يدى ثم امضى
فى سراح ورواح وأمن واطمئنان . ولكن هذا الخاطر وحده ، دع
عنك الفعل نفسه ، يحلل قواى و يفكك اعصابى حتى لأحس أن بي
حاجة الى من يأخذ بيدى ويعيننى على السير . وربما فكرت فيمن
يزيفون ورق النقد و يتخذون ذلك حرفة ومتجراً فيُطير النومَ من
عنى ليالى عدة هول ما يقدمون عليه من المخاطر. وما أظن بى لو انى
كنت نشأت بين اللصوص والسراق ، الا أن جبنى كان قميناً أن
يؤدى الى تنبيه الشرطة والحراس الى ما أنوى حتى قبل الشروع
فيه ، لفرط ما أقدر انه كان ينتابنى من الاضطراب

والحقيقة أن خراب الذمة يتطلب سكونا فى النفس ، وان شئت
فقل بروداً فى الطبع ، وجرأة فى الجنان ، وقــدرة على الاحتيال ،
ومضاء فى العزيمة ، وليس لى من ذلك كله نصيب . ولذلك ترانى اذا
غشنى انسان عفواً أو عمداً وأعطانى قطعة مزيفة من النقود لاأجرؤ —
اذا فطنت اليها — أن أمد بها كفى الى أحد على أنها صحيحة ، بل
أخفيها عندى أو أنتظر حتى أصير الى طريق مهجور ثم أطوح بهــا
بكل ما فى ساعدى من قوة كأنما أريد أن أجعل بينى وبينها أطول
ما يمكن من المسافة . وآه اذا مررت بشرطى وهى لا تزال فى جيبى !
آه من الاضطراب الذى يصيبنى ويخيل لى أن عين الشرطى قــد

نفذت من الثياب الى حيث القطعة المغشوشة وانه يهم أن يعــدو ورائى ليقبض علىّ! وترانى حينئذ أسير وأتافت وقد أضرب فى طريق غير طريقى لأتوارى عن هذه العين التى لا تمنعها كثافة الثياب أن تطلع على ما فى الجيوب من مغشوش!

وحدث مرة أنى سمعت رجلا يباهى بأنه أنقد (جرسون) قهوة قطعة مزيفة من ذات الخمسة القروش دون أن يفطن اليها فحسدته وتمنيت على الله أن يرزقنى بعض هذه الجرأة والثبات! وشر من ذلك وأدهى، وادعى الى الغيظ والسخط على النفس، انى ما استطعت قط أن أدع احداً — تاجراً أو صرافاً مثلا — يعطينى أكثر مما لى. وفى الناس من يستبضع ما شاء وينقد البائع الثمن ويتناول الباقى ويعده ويجده أكثر مما يستحق فيدفعه الى جيبه فى هدوء تام ويمضى عن الدكان دون أن يختلج حتى جفن عينه. مثل هــذا أغبطه ولكن محاكاته عزيزة المنال مع الأسف! وتالله ما أحسن استقباله لما يجيئه به الحظ! ما أبرع ركوبه للمد فى عباب حياته! ما أشد شكرانه لمــا يناله بغير كد أو تعب!

واتفق مرة ان كان فى بيتى عمال يبنون حائطا. وكان صاحب البيت قد أنقد أحدهم الاجرة مقدما فاشتغل يوماً وانقطع أياما ثم عاد فسألته أين كان فقال وهو جذلان والله ياافندى الحقيقة أنى بعد أن اخذت الاجرة من عمى . . . . سهرت ليلتى تلك وشربت قليلا ومن حسن الحظ أني انقدت الخادم ورقة بنصف جنيه فرد لى ثلاثه وثمانين

قرشا ظناً منه انى انقدته جنيها فحمدت الله الذى رزقنى من حيث لا احتسب واحييتها ليلة فى اثر اخرى

قلت « نعم هذا حظ غريب، ولكن الم تنازعك نفسك ولو لحظة أن تخبر الخادم المسكين انه أعطاك خمسين قرشا فوق مالك ؟ »

فحملق العـامل فى وجهي وصوب نظره فى وصعده ثم حول وجهه عنى والتفت الى عمله دون أن ينبس بحرف . وما اشك فى انه كان أعمق ما يكون اقتناعا بأنى مجنون ، من العبث الكلام معه .

وقل أن تجد من يصارحك بفساد بذمته كما فعل هذا العامل . والناس فى العادة أكثر ولعاً بالكلام على فساد ذمم سواهم . وكثيراً مايخيل لى اذ أحادث واحداً من سواد الناس فى أمثال هذه الموضوعات انى واياه الرجلان الشريفان فى هذا الكوكب الحافل بالاندال !

في الشعر الجاهلي

تأليف الدكتور طه حسين

استاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وان كان ما أثره الرواة عنه وقالوا إنه انحدر الينا منه ، لا يختلف عن جنى غيره من العصور الاسلاميـة في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة الى الحياة متفقة ، والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هـذه العصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يعتورها تغير جوهري . فما هو هـذا العصر الجاهلي إذن ؟ إنه عصر يعرفه الفقهاء ومن يبغون أن يقيموا حداً بين الاسلام وماقبله ، أما مؤرخ الأدب فمعذور اذا أنكر ان له سمة يتميز بهـا وينفرد . فالجاهلية التي انتهى الينا ماروى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية اذا شئت، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب الا أن يقف حيالهـا متردداً شاكا بل رافضاً كما فعل الاسـتاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي »

ولكل أدب أنفته الساذجة وحداثته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة — يصدق هـذا على الجماعات صدقه على الآحاد ،

وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ في دنيانا هذه ، ولكن الأدب العربي ليس له أول يُعرف ولا نشأة تُوصف اذ أقدم ما وقع الينا منه – على قول الرواة – بشحم كلاه ، ان صح هذا التعبير ، ونعنى بذلك أن هذا القديم مستوٍ بالغ أشده ، وان الأطوار الأولى التى لا بد أن يكون الأدب قد تقلب فيها ومر بها ، كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، حتى تناهى شبابه على النحو المأثور ، نقول ان هذه الأطوار مفقودة ضائعة لا سبيل الى العلم بها والوقوف عليها الا تخيلا والا بالطبع فى التخيل على غرار ما حدث للآداب الأخرى التى وقفنا على أصولها ونشأتها ، والا بأن نرسم لأنفسنا خط التطور طبقاً للسنن الطبيعية . « فالشعر الجاهلى » وصف غير صادق لأن جاهلية الأدب مطوية مع الأزمان التى غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هذا الشعر المأثور أول ما قالته العرب لأنه شعر ناضج متساوق الأغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الأدب والدين .

وليس ثم ما يمنع أن يكون هناك شعر قيل قبل الاسلام ، بل الذى يرفضه العقل هو ألا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر الى من عاشوا فى العصر الجاهلى صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل اذا سألت هذا الشعر عن نسبه ينتمى اليهم و يعتزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه وأساوبه بأنه دعيٌّ دخيل ؟ ؟ هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل أديب على نفسه . وقد تناولهما

الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وطرح السؤالين جميعاً وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذنى الدكتور طه على غرة بهـذا الكتاب فما أعرفنى قرأت شيئاً من اخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها الا نازعنى فى أمره شك ضعيف أو قوى، والا حكت فى صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة . واشهد ان الدكتور كان بارعاً فى بسط رأيه وفى ابراز الشبهات التى تحوم حول هذا الشعر وتضعف الثقة بنسبته الى الجاهليين ، وفى تأكيدها أيضاً . ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التى جاءت — على خلاف عادة الدكتور — خالية من كثير من حشوه المألوف . ونحسب أن لا خلاف فى ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التى يخرج بها المرء ، وأن من الحماقة أن نسترسل فى الاستنامة الى ما جاء فى الكتب القديمة وان كان كل شىء يدعو الى الريب ويغرى بالنقد ، وان نوصد بأيدينا فى وجوهنا ابواب التفكير مخافة ان يظن بنا العقوق والتمرد على ما خاف لنا السلف ، أو مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم ، فما زال التصديق أسهل من البحث ، والاقرار أيسر من النقد ، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذ أيضاً . وما من أحد نزع الى النقد الا اضطر أن ينبذ بعض ما يقع اليه وفى هذا الاطراح خسارة متوهمة

والنقد مهمة قاسية ، وما أكثر ما تكون بغيضـة الى القراء ، ولكننا لا نعرف احداً أحرى بالعطف وأحق بأن تلين له الافئـدة

من الناقد ، فهو لا يجد – كالكيميائى – كل شىء حاضراً مهيأ فى معمله ، وليس امامه شىء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التى تغنى عن الشهود وتقوم مقام المعاينة ، بل عليه أن يفحص كل ما تقع عليه يده ليستجلى غوامضه ويمحص حقائقه ، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانسانى نزاعاً الى التساهل ميالاً الى تناول ما يتطلب الدقة ، بغير احتفال أو تدبر . وما رأيت احداً ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته ، ولكن الاقرار بذلك أسهل من المعاناة . وحسبك أن تفكر فى القرون العديدة التى مضت وعصور المدنية التى انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد فى العالم ، حتى فى عصرنا هذا لا يأمن المرء على الطالب أن يقع فى الاخطاء القديمة . لأن النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الذهن فى العادة . وقد تعلم أن الميل اللدنى للانسان هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هواليه من الآراء والملاحظات

ألسنا فى حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز أو تمحيص ما يتأدى الينا من الاشاعات والانباء التى لا نعرف لها مذيعاً ولا ندرى ما مصدرها ؟ وقد نشذ أحياناً عن ذلك ونجنح الى الشك والتنقيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل فى ذاته ولا بعيد التصديق ولم يبلغنا ما ينقضه أو ينفيه فانا نزدرده ونفرح به وقد نضيف اليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارىء أن المرء حين يلقى نفســه في الماء تكون حركاته الطبيعية الاولى من شأنها أن تؤدى الى الغرق . وان السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقد ليس بالعادة الطبيعية وانما هو شيء يكتسب

وقد تخالف الدكتور طه اذا عز عليك التخلي عما درجت عليه، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب اليــه اذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين الا أن تقدر جهده والا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب في ان الاكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين اليه ، غير ان الشعر الجاهلي لا يصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله ، وكل مايجد أن نسبته تتغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وانها لكذلك فى كتاب الدكتور

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول ان بحث الدكتور طه قاطع فى اثبات ما ذهب اليه وما نشايعه عليــه من الرفض ، ولكننا نقول أن حجته أقوى من حجة القدماء ، وان رسالته ليست اكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلي اذا أراد أن يصل الى نتيجة يسكن اليها العقل ، وانها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقاط وان أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ، ذلك انه لم يوفق فى التطبيق ولم يأت بشيء له قيمة، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه

ولا بأس من أمثلة تجلو للقارىء ماتريد

يقول الدكتور فى رسالته ان «امرء القيس . . . . . يمنى وشعره قرشى اللغة لا فرق بينه و بين القرآن فى لفظه واعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام، ونحن نعلم . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز؟ بل فى لغة قريش خاصة؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان وكان أبوه ملكاً على بني أسد وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان و يعدل عن لغة اليمن ولكنا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته الا من طريق هذا الشعر الذى ينسب الى امرىء القيس ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل. واذن فنحن ندور: نثبت لغة امرىء القيس الذى نشك فيه!» الى أن يقول «وأعجب من ذلك أنك لا تجد مطلقاً فى شعر امرىء القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من انحاء القول يدل على أنه يمنى فمهما يكن امرىء القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محواً تاماً ولم يظهر لها أثر ما فى شعره؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة»

فامرؤ القيس يمنى، والشعر المعزو الى امرىء القيس عدنانى اللغة قرشيها. وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول

الابيات المنسوبة الى امرىء القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وان كانت كلها عدنانية قرشية ! ! رفض مثلاً هذين البيتين

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف اعجازاً وناء بكلكل

وقبل هذا البيت الذى يتلوهما :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى   بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فلماذا ؟ أهو يعنى اللغة دونهما ؟ أفيه شيء يخالف لغة عدنان وقريش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الاعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً فى هذا البيت فقط؟

وقد وقع الدكتور فى مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلهل وبن حلزة وطرفة بن العبد الخ الخ وان اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وان كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعنى بها زعمهم انه خرج فى يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء . فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به « يا صاحب البغلة » وعزمن عليه الا ما حدثهن بحديث دارة جلجل قالوا فقص عليهن قصة امرىء القيس وأنشدهن قوله .

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيا يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه أنه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعنى أنه مأنوس غير حوشى ، ويتكلم على المتانة والجزالة ويريد بهما حشو الكلام بالغريب الذى يحتاج المرء فى فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغتفر لرجل تذوق الأدب بله من يدرسه فى الجامعة : ومن ذلك قوله عن قصيدة جلة فى رثاء كليب انها شعر « لاندرى أيستطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر الحديث ان يأتى بأشد منه « سهولة وليناً وابتذالاً ؟ » والابيات التى يشير اليها هى .


جل عندى فعل جساس فيا ... حسرتى عما انجلى أو ينجلي
فعل جساس على وجدى به ... قاصمٌ ظهرى ومدنٍ أجلى
يا قتيلاً قوض الدهر به ... سقف بيتىّ جميعاً من عل
هُدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول
خصنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكى ليوميه كمن ... انما يبكى ليوم ينجلي


وهى أبيات ليس فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته ان لغة الكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية ! ! أنظر قوله « فان فى قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيراً على أقل الناس حظاً من العلم باللغة العربية فى هذا العصر الذى نحن فيه . وما هكذا كانت تتحدث العرب فى منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بما يقرب من نصف قرن ».

فمن أدراك يا دكتور ؟ ؟ ويالها من صورة معكوسة للغة فى ذهن الدكتور ! !

وقد أطلنا جداً والصحيفة لا تتسع للأفاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخبط الطلبة منه بأبحاث الاساتذة . فليته استغنى عنه . وان الدكتور ليحسن جداً الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل ، الى النقد التطبيقى أو الدراسات الفردية :

فهرس







Bibliotheca Alexandrina
0355448